

مذاهب وشخصيات

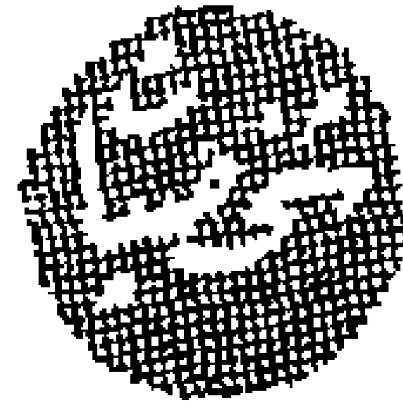
موسى بن نصير

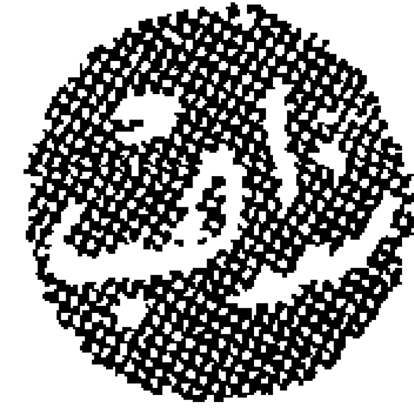
حياته وعصره

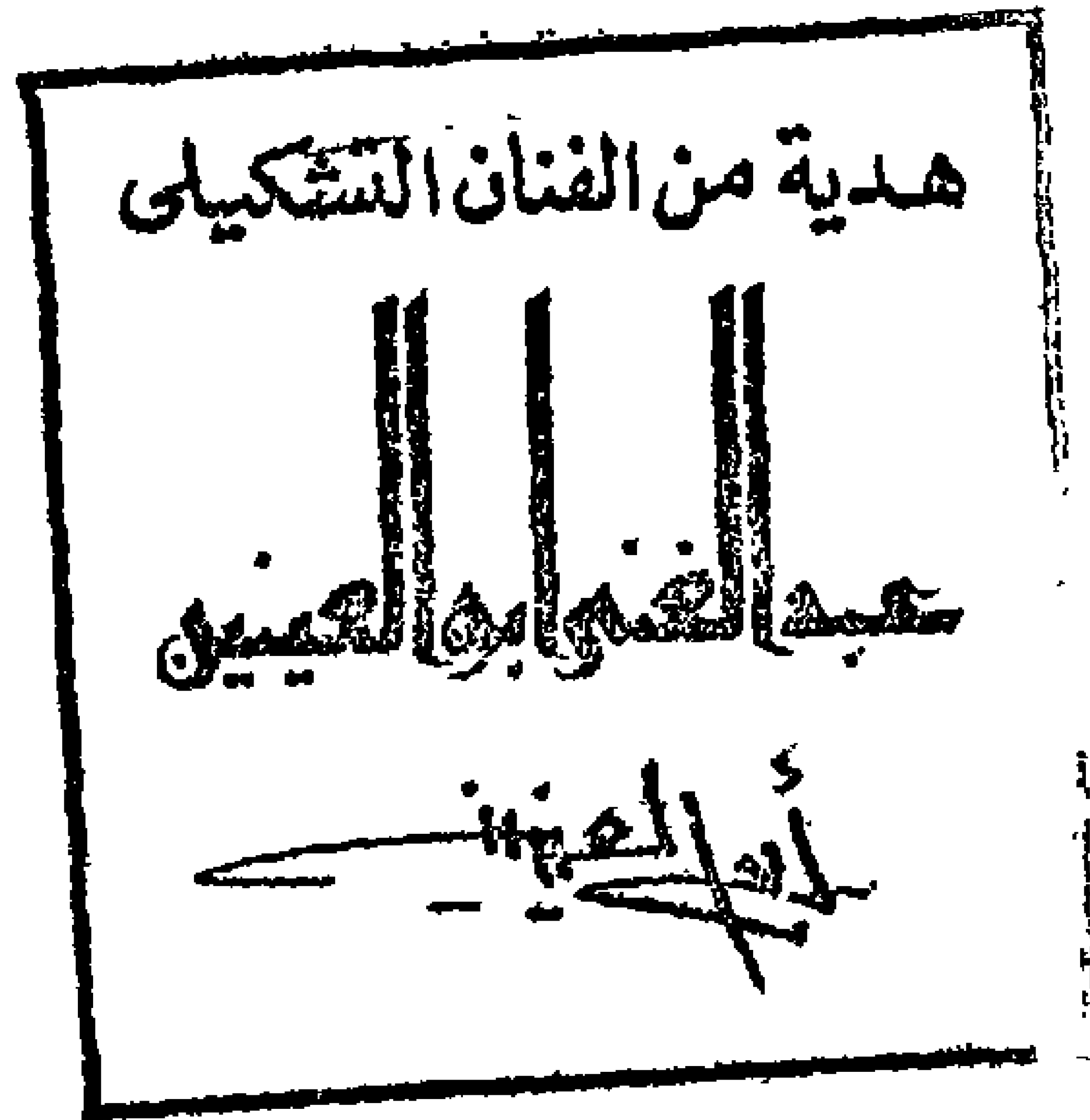
تأليف

عبد العزيز حافظ دنيا









موسى بن نصير
حياته وعصره وفتوحه

تأليف
عبد العزيز حافظ دنيا



موسى بن نصير

(نقلا عن سير ملهمة لفرانكلين)

« .. لا سـبيل الى أن نبنى جيلا جديدا ، يؤمن بمجتمعه وبأهدافه ، الا أن تكون لنا ثقافة قومية تنبع من بيئتنا ، ونسـتمد عناصرها من ماضينا ، وايماننا بالوطن العـربى ، وبالقـومية العربية ، والتعرف على تلك الأحداث التى صنعت هـذه القومية . وعن أبطالها الذين ناضـلوا فى سبيلها على مر العصور .. »

« عبد الواحد الوكيل »

الإهداء

الى شهداء العروبة وقوميتها فى كل الازمان ·

فى ميادين العراق وجباله ·

فى القادسية والمدائن واليرموك ·

وفى ميادين السند وتحت أسوار القسطنطينية ·

وفى سهول الشام وبطاحه ·

فى دمشق وحطين وعين جالوت ·

وفى سفوح الأطلس وأخاديدها ·

فى قرطاجنة وتهودة وصنهاجة ·

وفى الأندلس ووديانها ، وفرنسا وسهولها ·

وعلى ضفاف النيل وشواطئه ·

فى المنصورة ودمياط وفارسكور ·

وفى السويس وبورسعيد وقناتهما ·

قناة المجد والنصر والخلود ·

اليكم ياشهداء العروبة كتابى هذا فى تاريخ بطولتكم المجيدة ·

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على زعيم النبيين والمرسلين وامام الاشتراكيين (وبعد) فان الامم لا تعيش بحاضرها وحده بل هى تتلفت بين حين وآخر الى ماضيها تستمد منه حوافز البطولة ودوافع المجد وتستلهم من أمجاده ما يشعل حماس أبنائها ويحفزهم على الاندفاع بكل طاقاتهم يشقون طريقهم نحو أمل بسام يربط ماضيهم بحاضرهم ٠

ومن فضل الله علينا أننا فى عهد نعمل فيه على بعث مجد الامة العربية ونتغنى فيه بقوميتنا ، ولن يكون فهمنا لهذه القومية واضحا الا اذا تعرفنا الاحداث الخطيرة التى مرت بها وأبطالها الذين صنعوا تلك الاحداث على مر العصور ٠

ولا شك أن موسى بن نصير أحد هؤلاء الابطال المبرزين الذين ساهموا فى انشاء الوحدة العربية واحياء قوميتها ٠

ومن عجب أن بطلا مثله وفاتحا قديرا قام بدور كبير فى حياة أمتنا وكان له الفضل الأول فى تعريب المغرب وتحريره من الرومان المستعمرين حتى جعل الوحدة العربية حقيقة واقعة تمتد من الخليج الى المحيط ـ يغفل الكتاب تدوين تاريخه وفتوحه فى كتاب خاص يحمل اسمه تخليدا لما قام به من جليل الخدمات للعروبة والاسلام ، أفليس هذا عجيبا؟ ٠

من أجل ذلك رأيت من واجبي أن أسد هـذا النقص باصدار هذا الكتاب عن موسى بن نصير ، أستعرض فيه سيرته منذ مولده الى أن أصبح المستشار الاول للاقليم المصرى من الامبراطورية العربية ثم رئيسا لمالية البصرة ، ثم حاكمـا للمغرب ، ثم قائدا فاتحا اندفع بكل ما وهب الله له من قدرة وحماس ، فعبر البحر وغزا الاندلس وقضى على أعظم قـوة حربية أوربية فى ذلك الحين .

ولولا ذلك ما ثبت الامر للمسلمين ولفقد المغرب عروبته التى جاهد فى سبيلها من سبقه من قـواد العرب أكثر من نصف قرن من الزمان .

تم ذلك كله على يد موسى بن نصير ، ولكن سيرته مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحياة التي ولد فى ظلها وبالاحداث التي تربى فى كنفها ، فكان لا بد قبل أن نلتقى به أن نقف على أخبار تلك الاحداث التى سبقت مولده بحوالى عشر سنوات ، لان الحديث عنها سيقودنا فى النهاية الى لقائه والسير معه الى آخر المطاف .

لقد جاءت فصول هذا الكتاب متتابعة تتناول هـذه الجوانب التى أوجزناها لكيلا نخرج عن موضوعنا .

فالفصل الأول أسر والده (نصـير) فى يـد خالـد ابن الوليد واعتناقه الاسلام وفجر حياة موسى السياسية وعن بعض الأسباب التى فرقت الأمم الاسلامية عقب مقتل الخليفة عثمان ووفاة معاوية بن أبى سفيان وابنه يزيد ومشـاركة موسى بن نصير فيها بسيفه الى أن وقع أسيرا فى يد المروانيين بعد أن ظفروا بالخلافة .

والفصل الثانى عن المغرب واستعمار الشعوب الأجنبية له الى أن حرره موسى من نـيرهم ، وأعاده مرة أخرى الى حظيرة الوحدة العربية الاسلامية .

والثالث عن أسبانيا قبل الفتح العربى لها ثم تعريبها. وهكذا الى أن ننتهى بالقارىء الكريم الى خاتمة موسى ووفاته وكلمة الختام لهذا الكتاب .

والملحوظ أن المؤرخين كابن خلدون وابن حيان وغيرهما من المعاصرين كانوا قساة فى حكمهم على موسى ، فلم يروا فيه الا رجلا عنيفا مغتصبا ، وأخذوا عليه أنه صرف همه فى غزواته الى جمع الغنائم واغتصابها دون الاهتمام بما كانت تثيره أفعاله هذه من كراهية الشعوب التى قهرها واثارة بعض قواد الجيش ضده معللين بطشه بالقبائل الثائرة بالمغرب واستيلاءه على مائدة طليطلة التى غنمها طارق ومنازعة مغيث الرومى فى ملكيته لحاكم قرطبة الأسير بالطمع والاغتصاب .

ولكننا مع اعترافنا بأن موسى كان قاسيا فى بعض تصرفاته ـ ينبغى أن نذكر حقيقة هامة ، هى انه كان يتصرف بروح العصر الذى نشأ فيه والجو الذى تشبع به ، فقد تفتحت عيناه على الخلاف الذى وقع بين الامام على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ورأى معاوية يعصى أمر الخليفة الشرعى ويجرد عليه السيف فى سبيل الفوز بالخلافة ، وشاهد عبد الله بن الزبير ينهج النهج نفسه . ثم المختار بن أبى عبيدة الثقفى (زعيم الشيعة) يقاتل للغرض نفسه . وشاهد أكثر من واحد يسفكون الدماء ويغتصبون ماليس لهم ، كل منهم يهدف الى انتصار عقيدته ومذهبه .

عاش موسى بن نصير وسط هذا الجو الملىء بالفتن والثورات والمطامع فآمن بمبدأ « الحق للقوة » .

فاذا أردنا أن نحكم على موسى بن نصير فيجب ألا يكون حكمنا عليه بمعايير عصرنا بل بمعايير عصره ، واذا كانت للبطولة فى نظرنا الآن معانيها السامية التى تتفق مع مبادىء الشرف والأخلاق فان البطولة فى العصر الذى عاش فيه موسى لم تحظ بمثل هذه المعانى ، اذ لم تكن هناك غضاضة فى أن يخرج البطل أحيانا عن قواعد المبادىء السابقة ما دام يستثير بذلك اعجاب المعاصرين بشجاعته وقوة بطشه وفى الوقت نفسه تحقق له مايريد من نصر .

واذا كان المؤرخون يأخذون على موسى كثرة الدماء التى أهدرها فى أثناء استكمال فتح المغرب فان ذلك كان ضرورة يقتضيها الموقف الحربى فى ذلك الوقت ، وذلك لتثبيت الاسلام وادخال الهيبة فى نفوس القبائل التى كان الروم

يشجعونها على مناوأة المسلمين والتى لم تركن الى الاستسلام ولم ترع العهود التى قطعتها على نفسها كما فعل « كسيلة » زعيم البربر الذى هادنه « أبو المهاجر دينار » واجتذبه الى الاسلام ، ثم جاء عقبة بن نافع ، والخلاف وقع بينه وبين كسيلة ارتد هذا ثانية عن الاسلام ، وانقض بأنصاره من البربر ومحرضيه من الرومان على المسلمين فقتل منهم عددا كبيرا ، واستشهد عقبة وانسحب من نجوا الى برقة . وبذلك ضاعت جهود أربعين عاما بذلها المسلمون فى سبيل تعريب المغرب .

ولما أراد المسلمون اعادة الكرة ثانية بقيادة حسان بن النعمان بعد أن قضوا على الروم قصدت لهم جموع البربر بزعامة ملكة جبال أوراس ، وحملوا على المسلمين حتى هزموهم وأفنوا منهم خلقا كثيرا ، وبهذا خرج المغرب من أيدى المسلمين للمرة الثانية .

كان كل هذا أمام موسى بن نصير وهو يغزو المغرب، فلم يقبل أن يهادن القوم كأسلافه وهو يعرف سوابقهم فى الغدر فبطش بهم بشدة ، وكانت شدته هذه عاملا حاسما فى الموقف جعل القبائل الثائرة تهرع اليه وتعلن الدخول فى طاعته واعتناق الاسلام . فازدادت بذلك جيوش موسى زيادة سريعة لانكاد نجد لها شبيها فى أى قطر آخر من أقطار الدولة الاسلامية وقت ذاك .

ومن هذا يتضح أن سياسة العنف التى اتبعها موسى فى افريقية كان لها مايبررها كما كان لها الأثر البالغ فى تعريب المغرب وانتشار الاسلام بين ربوعه بسرعة لم يكن موسى نفسه يتوقعها ، ولولا ذلك ماخمدت فى نفوس المتمردين فكرة النزوع الى الثورة والاستخفاف بأمر موسى كما استخفوا من قبل بأسلافه ، وما استقر الأمر للمسلمين فى المغرب الذى كان قبلة أنظار الرومان الطامعين .

ومهما يكن من أمر موسى بن نصير كفاه فخرا أنه نجح فى استكمال فتح المغرب كله ، واتخذه قاعدة لفتح الأندلس وأصبح بمثابة الجناح الغربى للأمة العربية الاسلامية تخفق معه قلوب جميع العرب من الخليج الى المحيط .

وانه لمما يسعدني أن أقدم للقارىء تاريخ هذا البطل راجيا أن أكون قد خرجت من المراجع الكثيرة التي جاء فيها ذكره في سطور معدودة بصورة واضحة المعالم تعطي القارىء فكرة صحيحة عن موسى بن نصير ماله وما عليه ، وماله ـ في رأيي ـ أكثر بكثير مما عليه . ولعل في سيرته وبطولته ما يحفز الهمم ويثير في النفوس العمل على اعادة أمجاد العرب بعد أن وهب الله لهم الزعيم الوفي الرئيس جمال عبد الناصر الذي كرس حياته وجهده في هذا السبيل .

ولا يفوتني أن أذكر أننا رجعنا الى كثير من المراجع الموثوق بصحتها وأهمها « فجر الأندلس » للدكتور حسين مؤنس .

والله أسأل أن أكون قد وفقت ، انه خير عون وسند .

عبد العزيز حافظ دنيا

القسم الأول

نسب موسى بن نصير ومولده وفجر حياته السياسية

الفصل الاول

أسرى عين التمر

انطلق خالد بن الوليد فى السنة الثانية عشرة من الهجرة (٦٣٣م) من أرض الوحى على رأس الجيش الاسلامى ووجهته أرض السواد (العراق) لدك عروش المجوسية واعلاء كلمة التوحيد فى تلك الأرض ، وسرعان ما أتم فى عام واحد ما أعجز الأكاسرة والروم أن يتموه فى أعوام كثيرة ، فلقد زحف برجاله فى « أناة القطاة ووثبة الأسد » ، وفى « الكاظمة » بعث الى قائد الفرس « هرمز » يخيره بين الاسلام أو الجزية أو الحرب ويقول له : « جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

ثم انقض عليه فى موقعة ذات السلاسل التى ربط فيها الفرس بعضهم ببعض بالسلاسل حتى لا يفر منهم أحد فى أثناء القتال . فقضى على قوتهم ، وزحف بعد ذلك الى « المذار » حيث قيل له ان الفرس قد تجمعوا فيها فاقتتل معهم فى ملحمة دامية حارب فيها كما يقول المؤرخون حرب حنق وضغينة حتى أخذ بناصيتهم جميعا وقتل منهم حوالى «ثلاثين ألفا » ولولا النهر وركوب من نجا منهم ظهر السفن ما تبقى منهم أحد .

ورأى الفرس أن لاطاقة لهم بخالد منفردين فهرعوا الى رعاياهم من العرب المتنصره المقيمين فيما بين النهرين يستنجدون .ـم وفى واقعة «الولجة» التقى المسلمون بجميع أعدائهم وظل القتال سجالا بين الطرفين . وفى كمين أعده خالد وقع الفرس فيه كانت الهزيمة المرة وفرارهم من الميدان تاركين آلافا من القتلى وأحمالا لاعد لها من الغنائم النفيسة وقعت كلها فى أيدى المنتصرين ! .

وأعقب هذه الموقعة موقعة « اليس » فقد تحصن فيها الفرس وظنوا أنهم فيها بمأمن من سيف الغالبين وانضم اليهم رعاياهم من عرب السواد وبينما قائدهم الفارس « جايان » يهيىء نفسه وأركان حربه لتناول الطعام اذ فاجأهم المسلمون من كل مكان وأطاحوا برقابهم بالسيوف حتى خلطوا دماءهم بماء النهر وظلت تسيل فيه ثلاثة أيام متوالية تنفيذا لوعد خالد :

«ليجرين النهر بالدماء . » وقد قربت هذه الضربة خاتمة العهد المجوسى وزلزلت عروش الاكاسرة .

ثم أعلن خالد انتصار الوحدانية المؤزر ورفع علمها خفاقا على هذا

الجزء من أرض العراق • وانطلقت العيون الى مدينة الرســول العظيم تذيع الأخبار فرحة مهللة ووقف الخليفة أبو بكر فى الناس يبلغهم أنباء النصر قائلا ما معناه « يامعشر قريش ! عدا أسدكم على الأسد فغلبه عقمت النساء أن يلدن مثل خالد » •

ثم تابع القائد المظفر زحوفه وانتصاراته فسلمت له «الحيرة» وهرع حماتها يقدمون له الطاعة والدخول فى الدين الجديد ، ومن أبى منهم قدم له الجزية عن يد وهو صاغر •

وبدا لأبى بكر أن يوقف الفارس الشجاع فى مكانه فلا ينطلق بعد الحيرة حتى يوافيه زميله القائد «عياض بن غنم» ليكون كلاهما سندا للآخر فقد رأى الخليفة أن من تجاوز الحيرة أحاط به الفرس من اليمين والروم فى الشام من اليسار ، فأراد أن يؤمن الأرض للمسلمين خصوصا ان العرب المتنصرة قد جمعوا أنفسهم واعتصموا فى « دومة الجندل » •

وظل خالد فى موقفه كأمر الخليفة قرابة العام وفى خلاله عرضت له « عوارض » شتى لم تكن فى الحسبان ، فتصرف فيها جميعا تصرف الرجل الذى خلق للتقلب فى أجواء الحرب ، فلا تفجؤه حالة من حالاتها بما يربكه أو يعييه ، فقد علم أن الفرس قد تحصنوا فى «الأنبار» وأنهم قد حفروا حول الحصن خندقا ليحجز عنهم لقاء المسلمين ويحميهم من ضرباتهم • فلم يوهن هذا عزم خالد وفى التو أمر بذبح الابل العجاف وألقى بها فى جوف الخندق فسدته ثم دعا جيشه فعبر عليها ، ورأى أصحاب الحصن أنهم واقعون فى قبضة البطل لا محالة ، فرفعوا راية التسليم وقبل خالد توسلاتهم ، فحمدوا أربابهم على النجاة من يوم كيوم « أليس » المروع ؟ •

وما ان فرغ خالد من الأنبار حتى جاءته العيون تخبره بأن فريقا من عرب الفرس بقيادة « عقة بن عفة » يحتشدون له فى « عين النمر » حشودا لاقبل للمسلمين بها منهم فرسان « تغلب » و « اياد » وأصحاب المتنبئة « سجاح » وكانت سجاح هذه امرأة تشتغل بالكهانة ، ثم ادعت النبوة كما ادعاه زميلها « مسيلمة » ثم ارتضته بعلا وبقيت معه فى بنى حنيفة قومه أشهرا معدودات ، ولكنها سرعان ما هجرته الى مسقط رأسها لتنفرد بالزعامة لنفسها •

ويدل مجرى الحوادث على أنها كانت تنشر دعوتها بايحاء من الفرس لتحريض العرب على الدين الجديد ، وقد نجحت فى دعوتها بعض الشىء ، فالتف حولها الناس وكثر أتباعها وكان من رؤساء جندها « عقة » المذكور

الذى التقى به خالد من قبل فى اليمامة عندما كان يحـــارب المرتدين ويقاتل مسيلمة واتباع سجاح وقد ظفر بهم جميعا وشتت شمل « عقة » ورجاله فارتدوا فارين بصحبة زعيمتهم الى حى بنى تغلب فى الشمال.

زحف خالد الى عقة في (عين النمر) وفى معقله بالصحراء التقى به وبأتباعه ودار القتال بين الطرفين بصرامة وعنف ، وفى لمحة خاطفة ، أبصر خالد عدوه (عقة) وهو يقاتل كالشيطان على فرسة فقال لصحبه « اكفونا ما معه فانى حامل عليه بنفسى » وفى انطـلاقة مروعة احتضنه وحمله أسيرا وهو لا يتوقع أن يؤخذ من أساليب القتال العربى بهـــذا الأسلوب العجيب فى كل قتال . وقد كان خالد يعمد اليه كلما بدا له أن يوجز فى الحركة ويضرب قلب أعدائه بضرب عميدهم المطاع فيهم فيصيب ما أراد .

وتفرق بوقوع عقة فىقبضة خالد أنصارهوورجاله وسرعان ماتلقفتهم سيوف المنتصرين ومن نجا منهم استسلم عن طواعية وكانوا جمعا لايحصى منهم « أبو محمد بن سيرين » (مفسر الأحلام المعروف) والمحارب المقدام « نصير البكرى اللخفى » الذى يرجع نسبه الى قبيلة ربيعة العدنانية .

الفصل الثانى

مولد طفل

انضم نصير كما تقدم آنفا الى خالد وسرعان ماجذبته الدعوة الاسلامية ، فترك ماكان عليه من دين النصرانية أو المجوسية كما يقول بعضهم وأعلن اسلامه وأظهر من المواقف العظيمة والتفانى فى سبيل نشر الدعوة المحمدية ماجعل « خالدا » يكن له الحب ويجعله من رجاله الأحرار .

ومرت الأيام على نصير وهو مقيم فى وادى القرى (بين المدينة والشام) يشارك خالدا وصحابته فى ندواتهم الدينية وغزواتهم الحربية حتى اذا أقبل العام التاسع عشر الهجرى الموافق لسنة ٦٤٠ للميلاد فى زمن الخليفة عمر بن الخطاب رزقه الله ولدا سماه « موسى » فنشأ هذا تابعا لأبيه مسلما صادق الاسلام ومؤمنا بالوحدانية لا يشق له غبار .

نشأ موسى وسط هذا العهد العمرى وتخلق بأخلاقه وتعلم الكتابة فأجاد النثر ونظم الشعر وحفظ القرآن والأحاديث ، وأصبح على دراية كبيرة بعلوم الشريعة ، فعد من التابعين الذين رووا الحديث على أحسن ما يرويه علماء عصره ، وكان ذلك مبعث فخر لوالده ، فلم يترك فرصة الا اصطحبه معه لزيارة أهل الصدارة وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومجالسة كبار الرجال وحفظة القرآن الكريم .

ولما بلغ مبلغ الرجال تفتحت عيناه على هذا الخلاف المدون فى كتب التاريخ والذى وقع بين الهاشميين والأمويين عقب مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه ومحاربة بعضهم لبعض لارغام معاوية بن أبى سفيان عامل الشام على الاعتراف للامام على بن أبى طالب بالخلافة . فكان لهذا الصراع أثر كبير على نفسه بث فيه حب السلطان والتطلع الى السيطرة والنفوذ ، وأورثه الصرامة والعنف فما كانت مناظر الدماء ترهبه ولم تكن كما يقول ابن خلدون للأرواح حساب عنده مادامت تحقق له ما يريد .

شاهد والده الذى كان وقت هذا الصراع من رجال معاوية «وقائدا لحرسه أنه قد تجنب الفتنة » ووقف على الحياد بين المتخاصمين ولم يقبل الخروج مع معاوية للقتال معه فى موقعة «صفين» ضد على ، وسمع معاوية يقول لأبيه : ما منعك من الخروج معى ولى عندك يد لم تكافئنى عليها ؟ .

فقال نصير :

« لم يمكنى أن أشكرك بكفرى من هو أولى بشكرى منك » .

فقال معاوية : من هو ؟ .

قال نصير : الله عز وجل .

فأطرق معاوية برهة ثم قال :

« أستغفر الله » وعفا ورضى عنه .

لم يعجب موسى موقف أبيه من تلك الأحداث الدامية التى اندلع أوارها فى محيط المسلمين والتى تمخضت عن قتل سيدنا على ومبايعة الناس بعد ذلك لمعاوية بالخلافة وظل يترقب سير الأمور بعين المغامر الجرىء .

ولما مات والده ومعاوية وجدت نفسه الحبيس الفرصة للانطلاق نحو المشاركة فيما يجرى بين المسلمين من أحداث ، فقد كان الحسين بن على يقاتل أنصار الخليفة يزيد بن معاوية فى نواحى العراق ، ليأخذ الخلافة لنفسه ، فعزم موسى بن نصير على الانضمام الى جانبه والقتال فى صفوفه اذ وجد فيه أحقيته للخلافة خلفا لأبيه ، وما كاد يأخذ أهبته لذلك حتى سرعان ما وصل اليه نبأ مصرع الحسين بن على على يد رجال عبيد الله ابن زياد قائد جيش يزيد فى الكوفة فعمه الأسى وازدادت نقمته على الأمويين ووقف مرغما ينتظر اتجاه التيار .

وبموت الحسين ازداد السخط على « يزيد » وحكومته ، ونقض أهل المدينة الطاعة وأعلن عبد الله بن الزبير بن العوام فى مكة العصيان ، فاضطر يزيد الى محاربة الجميع وجرد عليهم جيشا كبيرا من أهل الشام بقيادة « مسلم بن عقبة » فأهدر الأرواح واستحل دماء صحابة رسول الله فى موقعة « الحرة » التى وقعت فى أواخر سنة ٦٣ هـ (٦٨٣م) . ولما أخضع أهل المدينة انطلق لاخضاع ابن الزبير فى مكة ، ولكن المنية عاجلته فى الطريق فخلفه « الحصين بن نمير السكونى » فوصل مكة فى شهر المحرم سنة ٦٤ فوجد ابن الزبير قد تجمع لديه آلاف من الأنصار وعلى رأسهم أهل الضيعة بصحبتهم المختار بن أبى عبيدة الثقفى ، والخوارج الذين خرجوا على سيدنا على يوم صفين (١) والذين قدموا من البصرة

---

(١) أبرز مبادىء الخوارج رأيهم فى التحكيم بين على ومعاوية فقالوا : اخطأ على، اذ حكم الرجال ولاحكم الا الله .. ثم كفروا الخليفة عثمان والسيدة عائشة والحكمين عمرو بن العاص وأبا موسى الاشعرى . وينادون بأن الخلافة من حق أى مسلم تتوافر فيه الشروط ، أما الشيعة فيقرون عليا ويعتبرون الخوارج خارجين عليه ويقولون بأحقيته بالخلافة بعد الرسول الكريم ومن بعده ذريته .

لمؤازرة ابن الزبير وتوحيد الجهود ضد الأمويين ، فاضطر لمحاصرة مكة ، ولكن ابن الزبير صمد لهذا الحصار وقاتل الأمويين بشجاعة · واستمر الحصار قرابة شهرين وبينما عبد الله بن الزبير ينظم صفوفه استعدادا للمعركة الفاصلة اذ وصله في اليوم الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ٦٤هـ نبأ وفاة الخليفة (يزيد) فوقع الخبر على أجناد الشام وقوع الصاعقة فدب في نفوسهم الوهن ورأى قائدهم (الحصين) أن ينضم الى ابن الزبير فطلب مقابلته وعرض عليه حقنا لدماء المسلمين أن يبايعه ويخرج معه الى دمشق ليأخذ له البيعة من الجيش وأهل العقد ، وقال له :

« أنت اليوم أحق الناس بهذا الأمر · هلم فلنبايعك ثم اخرج معى الى الشام فان هذا الجند الذين معى هم وجوه أهل الشام وفرسانهم ، فوالله لايختلف عليك اثنان وتؤمن الناس وتحقن هذه الدماء التى كانت بيننا وبينك والتى كانت بيننا وبين أهل الحرة » ·

ولكن عبد الله داخلته الوساوس من هـــذا العرض وأبى الخروج بصحبته الى الشام لئلا يكون في ذلك مكيدة للايقاع به ، وحينئذ لم يجد الحصين مفرا من العودة برجاله الى الشام ·

وكان موت يزيد مشجعا للناقمين على الأمويين فقام أكثر من واحد يطالب بالخلافة لنفسه .

فعبد الله بن الزبير ماكاد يرى جيش الشام يغيب عن بطاح مكة حتى قام يدعو لنفسه بالخلافة جهرا بعد أن كان يدعو لها سرا فبايعه أهـــل الحجاز واليمن والعراق ومصر وخراسان ·

ومعاوية الثانى بن يزيد نصبه الأمويون خليفة فى دمشق خلفـــا لأبيه وبايعه أهل الشام ·

والخوارج الذين عاونوا ابن الزبير ثم افترقوا عنه بعد موت يزيد للاختلاف معه فى العقيدة والهدف انقســـموا على أنفسهم « فالأزارقة » بقيادة « نافع بن الأزرق » أنشئوا لأنفسهم دولة فى اقليم فارس « جنوب البصرة » واتخذوا الأهـــواز مقرا لهم · و « النجدات » بقيادة « نجدة ابن عطية » أقاموا باليمامة وأسسوا لهم فيها وفى البحرين وحضرموت دولة لاينازعهم فيها منازع ·

وهناك فريق خامس وهم شيعة الامام على وابنه «الحسين» الذين

عرفوا أول الامر بالتوابين والذين فارقوا ابن الزبير للاختلاف معه أيضا استقروا بالكوفة بزعامة الصحابى « سليمان بن صرد الخذاعى » ، فلما قتل تولى قيادتهم « المختار بن عبيد الثقفى » وكان شعارهم « يا لثارات الحسين ! » وأخذوا يكتلون أنفسهم لمحاربة الجميع وازدادوا فى عدوانهم للأمويين لأنهم كانوا فى نظرهم مغتصبين للخلافة من أصحابها الشرعيين (آل طالب) وقتلة عميدهم الحسين رضى الله عنه ٠

الفصل الثالث

« بيعة مروان »

ومرت الأيام والدولة الاسلامية فى شقاق شديد ، وسرعان ما توفى معاوية الثانى بعد حوالى أربعين يوما من بدء خلافته وقيل ثلاثة أشهر . وأعقب ذلك أن ازداد الانقسام بين المسلمين عن أيام أبيه يزيد وساد الشام الخلاف وانقسم على نفسه :

ففريق فضل ان يبايع ابن الزبير وأخذ يتصل به .

وفريق يصر على بقاء الخلافة فى البيت الأموى ومبايعة خالد بن يزيد وكان خالد هذا حدث السن لم يبلغ سن الرجال بعد .

وظلت الحال على هذا المنوال حوالى ستة شهور ، وفى وسط هذه الدوامة والخلاف المستحكم وصل الى دمشق « مروان بن الحكم » قادما من الحجاز بصحبة عائلته للاقامة بالشام بعدما أخرجه الزبيريون من المدينة فوجد القوم مختلفين مترددين لم يستطيعوا أن يقطعوا بأمر ، فراودته نفسه بالرحيل ثانيا الى المدينة ومبايعة ابن زياد والى العراق هاربا من أهل البصرة الذين نقضوا طاعته عقب موت يزيد والذى يعده التاريخ المسئول الأول عن مقتل الحسين ، وسرعان ما اجتمع الشيخ مروان مع نخبة من كبار بنى أمية وعمرو بن سعيد بن العاص . وحينئذ بدأت الأمور تجرى فى غير الطريق الذى رسمه مروان لنفسه ، لقد استنكر القوم ما عزم عليه مروان من الذهاب الى الحجاز ومبايعة ابن الزبير وقال له زياد :

« قد استحييت لك ماتريد أن تصنعه ، أنت كبير قريش وسيدها نمضى الى أبى خبيب (يعنى ابن الزبير) (١) فتبايعه ؟ . أنشدك الله ألا تفعل ، فأنت أولى بها منه » .

ثم قال زياد : أن تنهض وتدعو لنفسك وأنا أكفيك قريشا ومواليها فلا يخالفك منهم أحد .

ثم اعقبه عمرو بن سعيد بن العاص فقال لمروان :

---

(١) كان ابن الزبير يكنى أبا خبيب وأبا بكر وأبا عبد الرحمن ولم يكن يكنيه بأبى خبيب الا من أراد ذمه .

« صدق عبيد الله : انت شيخ قريش وسيدها وانت أحق الناس بالقيام بهذا الامر » .

وسكت القوم وسرح مروان بفكره قليلا ، ثم انفرجت أسارير وجهه والتفت الى المجتمعين وقال : « ما فات شيء بعد » وكررها مرة أخرى .

وكانت هذه الجلسة بدء حياة جديدة لمروان أنسته ما كان قد عزم عليه من الرحيل الى المدينة ، وبدأ يستعد للعمل لمبايعة الناس له بالخلافة .

ونهض الجماعة ونشروا الدعوة للشيخ ، وكان أول من استجاب لمبايعة مروان أهل الاردن لأنهم أبوا أن يبايعوا من قبل خالد بن يزيد لصغر سنه وقالوا قولتهم المشهورة « اننا نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي » وهم يعنون بذلك أن المسلمين في الحجاز والعراق قد بايعوا شيخا كبيرا هو ابن الزبير على حين كان يراد منهم أن يبايعوا صبيا هو خالد أو شقيقه عبد الله ، لذلك كانت فكرة ترشيح مروان للخلافة قد نالت منهم موافقة في التو لكبر سنه التي تعادل سن ابن الزبير .

وقررت الأحزاب المتنافرة بزعامة الضحاك بن قيس أمير دمشق الذي كان يدعو لابن الزبير ، وحسان بن مالك رئيس القبائل اليمنية وأمير فلسطين والاردن وقبيلته أخوال يزيد بن معاوية أن ينظروا في الامر في اجتماع يعقدونه في « الجابية » (بين الاردن وفلسطين) ، واستمر الاجتماع منعقدا أربعين يوما برياسة حسان بن مالك . كانت المناقشة وتبادل وجهات النظر تتم فيه بحرية ، وكان المجتمعون يتشاورون ويتناقشون ولا يبغون سوى أن يصلوا الى قرار يحسمون به الخلاف ويردون للأمة وحدتها تحت زعامة رجل ذي كفاية بصرف النظر عمن يستحقها بحكم الارث ما دام في ذلك صون لكلمة المسلمين وحفظ لكيانهم من الضياع : مثال ذلك ما جرى بين « مالك بن هبيدة » الذي يدعو لمبايعة الصبي خالد بن يزيد وبين «الحصين بن نمير» الذي مر بنا ذكره والذي يأبى الدعوة له وهما قائدان بارزان في قومهما لهما من الكلمة ما يجعل القوم يعملون لهما ألف حساب ، وكانا ينتميان لعشيرة واحدة . اذ قال الأول للآخر :

« هلم فلنبايع لهذا الغلام فقد عرفت كيف كانت منزلتنا من أبيه فانه يحملنا على رقاب العرب غدا . »

فقال الحصين :

« لا لعمر الله لا تأتينا العرب بشيخ (يعنى ابن الزبير) ونأتيهم بصبى ! » .

فرد مالك بقوله :

« والله لئن استخلفت مروان وآل مروان ليحسدنك على سوطك وشراك نعلك وظل شجرة تستظل بها ! ان مروان أبو عشيرة وأخو عشيرة فان بايعتموه كنتم عبيدا لهم ! » .

فقال الحصين :

« مروان شيخ قريش والمطالب بدم الخليفة المظلوم (يعنى عثمان) وهو يدبرنا ويسوسنا ولا يحتاج الى أن نديره ونسوسه وغيره يحتاج الى أن يدبر ويساس (يعنى خالدا) .

ثم قص عليه حلما رآه وهو أنه شاهد قنديلا متدليا من السماء. وان من يتناوله يلى منصب الخلافة ، وقد شاهد مروان يتناوله ، لذلك أصر على رأيه وقال لابن هبيرة : « والله لنستخلفنه » .

وقد رأى ابن هبيرة فى ذلك نعم الصواب فهدأت ثائرته ووافقه على رأيه .

ومثال آخر من المناقشة الفريدة فى نوعها فى ذلك العصر . فقد وقف « ابن عضاه الأشعرى » يقول لحسان بن مالك الذى يصر على مبايعة خالد :

« أراك تريد هذا الامر لخالد بن يزيد وهو حدث السن ! »

فرد حسان بقوله :

« نعم انه معدن الملك ومقر السياسة والرياسة » .

ولما رأى ابن عضاه اصرار حسان على رأيه التفت الى نفر من أعضاء المؤتمر وقال لهم :

« هلموا معى لنرى ماذا يفعله هذا الحدث الساعة » .

ثم سرعان ما انطلق بهم الى حيث كان يقيم خالد « فوجدوه نائما متصبحا . »

فقال لهم ابن عضاه :

« يا قوم انجعل نحورنا اغراضا للأسنة والسهوم بهذا الغلام وهو نائم فى هذه الساعة وانما صاحب الامر المجد المشمر الحازم المتيقظ ؟ »

وتركوا الصبى مستغرقا فى نومه واتجهوا الى منزل مروان ليروا ماذا يفعل . فدخلوا عليه فاذا « فسطاط له ، واذا درعه الى جانبه ، والرمح مركوز بفنائه وجواده مربوط الى جانب فسطاطه . والمصحف بين يديه وهو يقرأ القرآن ، فقال ابن عضاه :

«أرأيتم يا قوم ؟ هذا صاحبنا الذى يصلح له الامر وهو ابن عم عثمان أمير المؤمنين وشيخ قريش وسيدها ! »

فقالوا له :

« حقا ما ترى » .

ثم رجعوا الى الاجتماع وأطلعوا حسانا على ما شاهدوه وشفعوا قولهم بأنهم يرون أنه لا يصلح لهذا الامر سوى مروان ، وعندئذ رد عليهم حسان بقوله :

« رأيى لرأيكم تبع ، انما كرهت أن تعدل الخلافة الى ابن الزبير وتخرج من آل هذا البيت » .

وهكذا كانت الروح المسيطرة على الاجتماع ، الروح التى تبغى قبل كل شىء توحيد الصفوف ليس فيها شىء من التعصب الكريه سوى التعصب لمن يقود الجماعة الى ما فيه سعادتها وصلاحها . ومن ذلك انحسم الامر وتمت المبايعة لمروان فى يوم الاربعاء الثالث من ذى القعدة عام ٦٤هـ (٦٨٤ م) . وانفض الاجتماع وخرج الجميع والرضا يغمرهم جميعا لوصولهم الى ما أنهى الأزمة وحفظ الكلمة وصان الامة من التفرق والتمزق .

ومما يذكر أن أعضاء المؤتمر لم تكن مناقشاتهم تدور حول خالد ومروان وأيهما أصلح للخلافة فقط ، وانما تعرضوا الى ترشيح بعض كبار العرب لهذا المنصب ومن هؤلاء « عبد الله بن عمر بن الخطاب » فقد وقف فى أثناء المناقشات « روح بن زنباع » الذى تولى ادارة فلسطين خلفا لحسان بن مالك يرد على بعض المؤيدين لابن عمر بقوله :

« أيها الناس ، انكم تذكرون عبد الله بن عمر بن الخطاب وصحبته

من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدمه فى الاسلام ــ وهو كما تذكرون ــ ولكن ابن عمر رجل ضعيف وليس بصاحب أمة محمد الضعيف .

ثم بدأ بعد ذلك يرد على المؤيدين لابن الزبير بقوله :

« وأما ما يذكر الناس عن عبد الله بن الزبير ويدعون له فهو ــ والله ــ كما يذكرون انه ابن الزبير حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن أسماء بنت أبى بكر الصديق ذات النطاقين وهو ــ بعد ــ كما تذكرون فى قدمه وفضله ، ولكن ابن الزبير منافق قد خلع خليفتين: يزيد وابنه معاوية ، وسفك الدماء وشق عصا المسلمين وليس صاحب أمر أمة محمد المنافق .

ثم ختم مناقشته بطلب البيعة لمروان ذاكرا مزاياه وقوة شخصيته التى تؤهله للزعامة بقوله :

« وأما مروان بن الحكم فوالله ما كان فى الاسلام صدع قط الا كان مروان ممن يشعب هذا الصدع ، وهو الذى قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار ، والذى قاتل على بن أبى طالب يوم الجمل (١) وانا نرى للناس أن يبايعوا الكبير ويتركوا الصغير . » (يعنى بالكبير مروان وبالصغير خالدا) .

ثم فارق المنبر وترك الامر للمجتمعين يتداولون فيه ، وما كاد يجلس مكانه حتى وقف ممثلو الاردن والتفتوا الى مروان وقالوا له :

« انت شيخ كبير وابن يزيد غلام وابن الزبير كهل ، وانما يقرع الحديد بعضه ببعض فارم بنحرك فى نحره ، ابسط يدك نبايعك ، فبسط يده ، فكانوا أول من بايعوه « كما سبق القول » .

ولما فرغوا من بيعتهم وقف حسان فى المجتمعين وقال بعد أن حمد الله وشكره :

« ان مروان هو كبير قريش وابن عم الخليفة المظلوم والمطالب بدمه قبل الناس أجمعين فبايعوه ــ رحمكم الله ــ فهو أولى بميراث

(١) هى المعركة التى دارت بين الامام على ومعاوية وكانت السيدة « عائشة » تؤيد فيها معاوية وقد سقط فيها جملها فى أثناء القتال فسميت بمعركة الجمل .

عثمان وأحق بالامر من النـاكث ابن الزبير الذى خلع الخـلافة وجاهر بالمعصية « فسارعوا الى بيعته » .

وسرعان ما ارتفعت الألسن مرددة البيعة لمروان .

وهكذا تمت البيعة لشـيخ قريش وبدأت دولة آل مروان تأخـذ مكانها فى التاريخ .

وقبل أن يغادر القوم مكانهم قرروا اعلان الحرب على أنصـار ابن الزبير الذين تجمعوا فى « مرج راهط » بجوار دمشق بزعامة « الضحاك ابن قيس الفهرى » .



الفصـــل الرابع

حيرة موسى

شاهد موسى بن نصير تلك الأحداث التى أخذت من تفكيره الكثير وتحير فى أى الفريقين كان على حق :

ابن الزبير وشيعته ومروان وانصاره .

وفجأة وجد نفسه يعيش بأفكاره بين عاملين :

عامل يدفعه للقتال لنصرة ابن الزبير للانتقام من قتلة الحسين الذى حز فى نفسه استشهاده على تلك الصورة البشعة من قطع راسه وتنكيث ابن زياد له بعصاه .

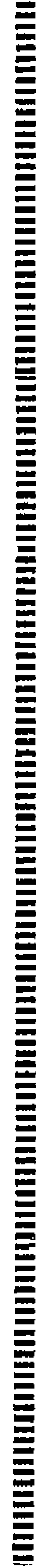
وعامل آخر يجتذبه نحو آل مروان نظرا لأنهم لم يشتركوا فى هذا الحادث المثير الذى وقع ومروان واولاده فى الحجاز فهم فى نظره أبرياء من دم الشهيد .

ونظرا لصداقته الوطيدة التى كانت تربطه بابن الخليفة الجديد (عبد العزيز بن مروان) الذى كان يقاربه فى السن ويتجاوب معه فى المشارب وحب المغامرات ويمنى نفسه بصحبته بتحقيق ما يصبو اليه من آمال .

كان هذان العاملان هما شغله الشاغل لا ينفصلان عن تفكيره دائما فى الحل والترحال .

ومرت الأيام ومضى على بيعة مروان نحو الشهرين وفى أثنائهما شاهد موسى جيوش المروانيين تتأهب لخوض المعركة الفاصلة مع انصار ابن الزبير فى مرج رهط .

وفى احدى الليالى بات موسى وأصبح فاذا هو قد عزم على الانضمام الى صفوف الضحاك ضد آل مروان مضحيا بصداقته لابن الخليفة وبأمانيه التي كان يريد تحقيقها على يديه ومن ثم انطلق من منزله حاملا درعه وسيفه ، وغادر دمشق فى مطلع الفجر وسرعان ما أخذ مكانه فى صفوف أنصار ابن الزبير فى مرج راهط .



الفصــل الخامس

موسى في الاسر

اجتمع لكل من الفريقين المتخاصمين نحـو « اثنى عشر ألفا » من الموالين والانصار : فجيش الضحاك يضم قبائل قيس اليمنية بفـروعها المختلفة ، وجيش مروان يضم قبائل كلب فجعل على ميمنتهم عمـرو بن سعيد بن العاص ، وعلى ميسرتهم عبيد الله بن زياد الطاغية ، واختص نفسه وحسـان بن مالك بمقام القلب ، أما الضحاك فقد جعل على ميمنته المدد الذى بعث به النعمان بن بشير الأنصارى عامل حمص ، وأمر عليه موسى بن نصير حتى يواجه خصـمه اللدود المسـئول الاول عن قتل الحسين ، ثم جعل على ميسرته رجال زفر بن الحارث والى قنسرين ، وقيل ان زفر حضر على رأسهم ، ثم وقف الجيشان وجها لوجه استعدادا لخوض المعركة .

وقبل اشعال نارها بعث مروان فى أوائل المحرم سنة ٦٥ هـ (٦٨٤م) فرقة من قبائل غسـان لانتزاع دمشق من رجال الضحاك وقد نجحت فى الاستيلاء عليها وعلى مافيها من أموال وسلاح ، فكانت هـذه المعـركة فاتحة النصر لمروان بثت فيه الثقة بالفوز وأمدته بعتاد ومدد نفعاه بأن يقرر فى الحال خوض المعركة بينه وبين الضحاك ، وسرعان ما هجم برجاله نحو خصمه وتصافحت السيوف واشتبكت السواعد ودام القتال بعنف وامتلأ الميـدان بألوف من القتلى ذهبـوا ضحية الشقاق والخـلاف ! واستمر الصراع قائما ليـل نهار لمدة عشرين يوما أظهـر اليمنيون فيه وعلى رأسهم موسى بن نصير بطولة اخاذة . ثم تمخض أخيرا عن هزيمة الضحاك وأنصـاره هزيمة مروعة . وكان من سوء حظه أن وقع أسـيرا فى يد أعدائه فقطعوا رأسه وجاءوا بها لمروان ، فتأثر عند رؤيتها وقال ما معناه : « الآن حين كبرت سـنى ودق عظمى ولم يبق من عمرى الا القليل وأقبلت الكتائب أضرب بعضها ببعض ! » .

وبقتل الضحاك تفرقت شيعته وانصار ابن الزبير فهرب زفر بن الحارث الى احدى مدن نهر الفرات شمالى الجزيرة وتحصن بها واقسم ليكونن شوكة فى ظهر آل مروان وزمرتهم وعلى رأسهم حسـان بن مالك وقال فى ذلك قصيدته المشهورة التى جاء فيها :

أرينى سـلاحى لا أبالك اننى
أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا

لعمرى لقد ابقت وقيعة راهط
لحسان صدعا بيننا متنائيا

وقد بر الرجل بقسمه فبقى سبعة أعوام يهدد جيوش المروانيين الزاحفة من الشام لاخضاع العراق حتى اذا كان عام ٧١هـ (٦٩٠ م) فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان الذى تولى الامر بعد أبيه سنة ٦٥هـ زحف اليه جيش عبد الملك ، وظلّ يحاصره أربعين يوما ويدك أسوار حصنه بالمنجنيقات الى أن تفاوض عبد الملك معه على الصلح وبذلك أمكن عبد الملك أن يوجه جهوده لبسط سلطانه على العراق كله وانتزاعه من يد « مصعب بن الزبير » أخى عبد الله بن الزبير كما هو مبين بعد .

هذا ما كان من أمر زفر بن الحارث وخاتمته أما زملاؤه القواد الثلاثة الذين ايدوا الضحاك معه فحينما رأوا الهزيمة وبلغهم خبرها خرج أولهم « النعمان بن بشير » متسللا فى وقت السحر هاربا ، ولكن سرعان ما أدركه « خالد الكلاعى » أحد أنصار مروان خارج المدينة فقتله (١) .

وأما ثانيهم « ناتل بن قيس الجذامى » فقد استطاع الفرار واللحاق بابن الزبير .

وأما ثالث الثلاثة « موسى بن نصير » فقد هام على وجهه يضرب فى الارض ما يكاد يستقر فى مكان يختبىء فيه حتى سرعان ما تجيئه الأنباء بأن عيون مروان فى طريقها اليه للقبض عليه فيغادره فى التو .

ولما ضاقت به السبل بعث يستجير بصديقه عبد العزيز بن مروان ويرجوه فى التوسط لدى والده فى العفو عنه ، فلما جاءه رسول موسى يطلب منه أن يجيره فرح للنبأ وهلل له وذهب مسرعا الى أبيه يطلب الأمان لموسى ، وقد كان له ما اراد فاستجاب الوالد لرجاء الابن ، وحضر موسى وقبل يد الخليفة وأقسم ليهبن عمره فى خدمة آل مروان ونصرتهم ، وقد وفى موسى بيمينه ، فظل يسير فى ركاب المروانيين يفتح

---

(١) مما يذكر ان النعمان هو الذى انطلق من المدينة حاملا قميص عثمان مخضبا بالدم بعد مقتله وسلمه لمعاوية وقد استغل معاوية هذا القميص ونشره على المنبر وجمع الناس لرؤيته ليحرضهم على قتال الامام على ، وقد فعل هذا القميص في نفوسهم مالم تفعله أعظم الدعايات أثرا وأقسموا الا يمسهم الماء الا للغسل من الجنابة . والا يناموا على الفرش حتى يقتلوا كل من شارك في قتل عثمان .

لهم الأقطار والامصار ويوسع فى رقعة سلطانهم الى أن بلغ الثمانين من عمره .

ومكث موسى ملازما لصديقه ومولاه عبد العزيز لا يفارقه ليل نهار وابدى من الولاء لبيت مروان ما استرعى انتباه الخليفة «ومن جاء بعده فقربوه اليهم ، وظلوا يرفعون من مكانته يوما بعد يوم حتى أصبح من رجال الدولة المعدودين وحكامها البارزين .

الفصل السادس

موسى المستشار

استقر الأمر لمروان فى الشام عقب موقعة مرج راهط ، ثم بدأ بعد ذلك يستعد لمنازلة ابن الزبير وتوحيد البلاد الاسلامية كلها تحت سلطانه . وكان أن أعد جيشا كبيرا بقيادة عبيد الله بن زياد لاخضاع الجزيرة والعراق . وسار الجيش فى ربيع الآخر سنة ٦٥هـ ، وما كاد مروان يفرغ من ذلك حتى وفد عليه جماعة من أهل الصدارة فى مصر، جاءوا يحملون معهم رغبات أهلها لمبايعته وخلع طاعتهم لابن الزبير ، فرحب بهم وأمر فى التو بتجهيز الجيش للمسير به نحو مصر ، وزحف الجند مسرعين تتقدمهم الطلائع بقيادة ابنه عبد العزيز وموسى بن نصير .

وبعد مسيرة عدة أيام وصلت المقدمة الى منطقة عين شمس ، ثم سرعان ماوافاها مروان ، وكان وصوله فى الاول من جمادى الاولى سنة ٦٥هـ (٦٨٥ م) .

وبينما هو يسرع فى الزحف فى سهول الريدانية اعترض طريقه جيش «عبد الرحمن بن عتبة الفهرى» عامل مصر من قبل ابن الزبير فاشتبك معه فى قتال لم يدم طويلا . اذ كانت الكفة فيه راجحة لمروان ، فأسرع ابن عتبة فى طلب الصلح وتسليم البلاد له على أن يؤمنه على نفسه ويتركه يلحق بابن الزبير دون أن يعترض طريقه ، فقبل مروان ، وبذلك دانت مصر للمروانيين .

ومكث مروان بمصر الى الاول من رجب من العام نفسه يرتب أمورها وشئونها ويطهرها من فلول أعدائه ، ولما فرغ عزم على الرحيل الى دمشق ، وقبل سفره عين ولده عبد العزيز واليا عليها ثم جعل موسى بن نصير مستشاره ووزيره الاول فى مملكته الجديدة .

ووصاه بالتقوى والعدل بين الرعية حتى يكسب عطف الجميع على اختلاف طبقاتهم وملتهم وأن يأخذ بمبدأ الشورى فى كل أمر يبرمه ، وقد حوت هذه الوصايا التى زود بها مروان ابنه وبعث ببعضها اليه بعد ذلك أسمى المبادىء المتحضرة التى تشهد للعرب بسمو الحكمة والمعرفة التامة بأصول الادارة وفنون السياسة . انظر وهو يقول له :

« يا بنى ، عمهم باحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك ، واجعل وجهك

طلقا تصف لك مودتهم ، وأوقع الى كل رئيس منهم انه خاصتك دون غيره يكن عونا لك على غيره وينقد قومه اليك ، وقد جعلت معك أخاك « بشرا » مؤنسا ، وجعلت لك « موسى بن نصير » مشيرا ووزيرا ، وما عليك يا بنى الا أن تكون أميرا بأقصى الارض ؟ أليس ذلك أحسن من اغلاقك بابك وخمولك فى منزلك ؟ »

وفى وصية ثانية :

« اوصيك بتقوى الله فى السر والعلانية وبالبر بالفقراء وانجاز الوعد وأن تكون المشورة رائدك قبل الفصل فى أمور الدولة . وبذلك تلهج الألسنة بالدعاء لك وتأمن الفتن والقلاقل » .

أما وصيته الثالثة التى وصاه فيها باعطاء كل ذى حق حقه ومصاحبة أهل الفضل واستشارة أهل العلم ، ونهاه فيها عن الكذب فقد جاء فيها :

« انظر — أى بنى — الى أهلك وعملك فان كان لهم عندك حق غدوة فلا تؤخره الى عشية . وان كان لك عشية فلا تؤخره الى غدوة وأعطهم حقوقهم عند محلها تستوجب بذلك الطاعة منهم . واياك أن يظهر لرعيتك منك كذب . فانهم أن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك فى الحق واستشر جلساءك وأهل العلم . فان لم يستبن لك فاكتب الى يأتك رأى فيه ان شاء الله . وان كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخذه به عند سورة الغضب ، واحبس عقوبتك حتى يسكن غضبك ، ثم انظر الى أهل الحسب والدين والمروءة ليكونوا أصحابك وجلساءك ، ثم ارفع منازلهم منك على غيرهم ، أقول هذا واستخلف الله عليك » .

وقد عمل عبد العزيز بتلك النصائح الغالية فالتف حوله الجميع واحبه أهل الذمة وقد بالغ فى العطف عليهم واقرار ما لهم من حقوق ، وقبل أن يجعل من حلوان مقرا دائما له فى سنة٧٣هـ (٦٩٢م) اتخذ من احد أديرتهم فى مدينة «طمويه» التى على النيل محلا لاقامته ودفع لأصحابه من الرهبان ثمنا له أكثر من « عشرة آلاف جنيه » ليكون مثلا يحتذى فلا يقدم أحد من الرعية المسلمين على اغتصاب ممتلكاتهم . وزاد فى عطائه لمختلف الطبقات حتى أطنب المؤرخون فيما قدمت يداه من أعمال البر والاحسان فقال بعضهم : « انه كان له ألف جفنة تنصب حول داره ، ومائة جفنة تحمل على العجلات ويطاف بها على قبائل مصر وفى ذلك يقول الشاعر :

كل يوم كأنه يوم ضـــحى
عند عبد العزيز او يوم فطـر

وله الف جفنـــة مترعات
كل يوم تمدها الف قـــدر

ومكث عبد العزيز واليا على مصر لمدة عشرين عاما وعند موته بكاه الجميع ورثاه الشـعراء أبلغ رثاء وقال فيـه الشاعر سليمان بن أبال الانصارى :

فمن الذى يبنى المكارم والعـلا
ومن ذا الذى عندى له بعدك الشعر

فكنت حليف العرف والخير والندى
فمتن جميعـا حين غيبـك القبر

عاش موسى فى كنف عبد العزيز فكان صديقه المخلص ومستشاره ووزيره الأول ووصيفه المقدم على من عداه من رجال الصدارة فأتيح له بذلك أن يتمرس على ادارة الحكم بمشاركته دائما فى شئون الدولة، كما ساعده مركزه على مصاحبة العلماء والأخذ بعلومهم والاستماع الى مختلف الشعراء الذين كانوا يهرعون الى عبد العزيز لمدحه والاشـادة بآل مروان ، فاتسعت مداركه وارتقى اطلاعه ، وبهذا جمع بين رغبته فى متابعة العلم الذى كان يتعشقه وهويته فى الضرب فى غمار السياسة مما دفعاه الى التطلع الى نصيب أوفى من الحكم المستقل حتى يكون له مثل ما لمولاه عبد العزيز من الجاه والسلطان ، وظل فى مكانه يترقب الفرص ، فقـد كان مبدؤه الذى سـمعه من سيدنا على بن أبى طالب « انتهزوا الفرص فان الفرصة تمر مر السحاب » .

الفصل السابع

موت مروان وتولية عبد الملك

مات الخليفة مروان بن الحكم فى الاول من رمضان سنة ٦٥ هجرية الموافقة لسنة ٦٨٥ م تاركا الامر لابنه عبد الملك ليقود المسلمين الى طريق الوحدة ويخضع طلاب الفرقة والانقسام .

واستفتح عبد الملك عهده بالموافقة على ما أقره والده من قبل من ارسال الجيش الذى كان قد أعده بقيادة «حبيش بن دلجة القينى» لاخضاع الحجاز والقضاء على ابن الزبير .

وقد استطاع هذا الجيش أن ينتصر على طلائع ابن الزبير ويحتل مدينة الرسول الكريم فى أوائل رمضان من العام نفسه ثم اعتلى « حبيش » منبر النبى عليه صلوات الله وخطب فى الناس خطبة تهديدية عنيفة حمل فيها على اهالى المدينة لعدم مناصرتهم الخليفة عثمان وخذلانهم اياه .

ولما علم بقدوم الجيوش القادمة من البصرة لمعاونة ابن الزبير ضده اسرع بالخروج من المدينة ليتلاشى الحرب فى جبهتين : جبهة المدينة وسكانها الذين يتمنون هلاكه ، وجبهة الانجاد الزاحفة لمقاتلته والقضاء عليه ، وفى مكان يسمى « الربذة » من ضواحى المدينة وهو الموضع الذى نفى فيه الخليفة عثمان « أبا ذر الغفارى » الاشتراكى العظيم(١) والذى ظل فيه الى أن لقى ربه . وقف «حبيش» ينتظر لقاء خصومه . ولم يطل به الوقت فسرعان ما التقى بهم ، وبعد صراع مرير دارت

(١) كان أبوذر في الشام يحرض الفقراء على طلب حقوقهم من الاغنياء ، وقد تخوف الأغنياء من تلك الدعوة الاشتراكية فشكوه الى معاوية فنهاه معاوية عن ذلك فلم ينته فكتب معاوية الى عثمان : « انك قد أفسدت الشام على نفسك بأبى ذر » فرد عليه عثمان بأن يرسله اليه ، وذهب أبو ذر الى المدينة ثم خرج منها ليقيم في الربده على بعد ثلاثة أميال من المدينة ومكث بها الى أن مات .

الدائرة على جيش المروانيين وقتل «حبيش» تحت سنابك الخيل ودخل المنتصرون مدينة يثرب بين التهليل والتكبير وفرحة أهلها .

وحاول عبد الملك أن يعيد الكرة في العام التالى فبعث جيشا آخر بقيادة ابن عمه عبد الملك بن الحارث ، ولكن محاولاته ذهبت سدى.

ولما أعيته الحيلة وجه همه الى العراق للقضاء على انصار ابن الزبير. ومقاتلة الشيعة وزعيمهم المختار بن أبى عبيد الذين تكتلوا ليأخذوا بثأر الحسين رضى الله عنه ومقاتلة كل من اشترك فى مصرعه وحرض عليه .

الفصل الثامن

مصرع قتلة الحسين

سار جيش عبد الملك نحو العراق بقيادة « ابن مرجانة عبيد الله ابن زياد » وأمكنه فى أول جولة له أن ينتزع الموصل من عامل المختار ، وأخذ يستعد للزحف جنوبا :

وطار النبأ الى المختار فى الكوفة فأسرع بارسال ثلاثة آلاف محارب بقيادة « يزيد بن أنس الاسدى » وفى مكان قرب الموصل التقى الشيعة بخصومهم وكانوا « ستة آلاف » من فرسان الشام والتحم الفريقان فى صباح وقفة عرفات سنة ٦٦هـ ومكث القتال عدة أيام ، وأخيرا انجلى عن هزيمة جند الشام . وعقب هذا النصر الشيعى وقف المختار فى أسرى خصومه يهددهم ويتوعدهم ان لم يدلوه على من شارك من بينهم فى قتل الحسين وقال لهم :

« انظروا من شهد منكم قتل الحسين فأعلمونى » وسرعان ما دله البعض على الكثير ممن لوثوا أيديهم بدم الشهيد ، فأمر بضرب أعناقهم جميعا ثم نادى فى الناس قائلا :

« ما من ديننا ترك قتلة الحسين أحيـاء فى الدنيا آمنين ، بئس ناصر محمد أنا اذن الكذاب (١) — كما أسمونى ، وانى أستعين بالله عليهم ، فسموهم لى ثم اتبعوهم حتى تفنوهم ، فانى لا يسوغ لى الطعام ولا الشراب حتى أطهر الارض منهم » .

وقد وفق الله الرجل فاهتدى الى كل من شاهد وشارك فى قتل الحسين وعلى رأسهم « شمر بن ذى الجوش » أول من حمل على الشهيد . وقد قبض عليه فى قرية « سـادماه » وقيل أنها « المذار » قرب البصرة وقتله المختار وبعث برأسه الى محمد بن الحنفية بالمدينة . ومكث المختار يجد فى أثر كل مذنب حتى أمكنه أن يبلغ مأربه ، ولكن بقى عليه أن يتمكن من ابن زياد المحرض الاول على قتل الحسين ، وكان أن جهز جيشا ضخما بقيادة « ابراهيم بن الأشتر » لقتاله .

وسار الجيش الى الموصل وفى الطريق انضم اليه رجال القائد

---

(١) لقب بالكذاب لتزويره كتابا ونسبه الى محمد بن الحنفية أخي الحسين وعرضه على القبائل لتأييده ضد المروانيين وقد انكشف أمره .

الشيعى « يزيد الاسدى » الى ان بلغ نهر الخازر من فروع نهر دجلة فحط رحاله ، وسرعان ما أقبل جيش الشام بقيادة « الحصين بن نمير السكونى» يعاونه « ابن مرجانة » « وشر حبيل بن ذى الطلاع الحميرى » • وهم ممن شاركوا فى قتل الحسين ، فنزلوا قريبا من موقع خصومهم على شاطىء النهر .

وقف الخصمان وجها لوجه وكان على ميمنة جيش الشام «الحصين» وعلى ميسرته «عمير بن الحباب» وفى القلب ابن زياد وشرحبيل «قائد الخيل» .

وعندما أشرق صباح يوم عاشوراء من المحرم سنة ٦٧هـ (٦٨٦م) وقف ابراهيم بن الاشتر يحرض الشيعة بقوله :

« يا انصار الدين وشيعة الحق وشرطة الله ، هذا عبيد الله بن مرجانة قاتل الحسين بن على ابن فاطمة بنت رسول الله ــ الذى حال بينه وبين بناته ونسائه وشيعته وبين ماء الفرات أن يشربوا منه (١) وهم ينظرون اليه ومنعه أن يأتى ابن عمه فيصالحه ، ومنعه أن ينصرف الى رحله وأهله، ومنعه الذهاب فى الارض العريضة (٢) حتى قتله وقتل أهل بيته ، فوالله ما عمل فرعون بنجباء بنى اسرائيل ما عمل ابن مرجانة بأهل بيت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الذى أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ــ قد جاءكم الله به وجاءه بكم ، فوالله انى لا أرجو الا يكون الله جمع بينكم فى هذا الموطن وبينه الا ليشفى صدوركم بسفك دمه على أيديكم فقد علم الله أنكم خرجتم غضبا لأهل بيت نبيكم » .

ولما فرغ من تحريض رجاله أمر بالهجوم على المروانيين قبل أن يهاجموه ، ودارت المعركة بالقرب من نهر الخازر . وحمل ابن الاشتر

---

(١) كان الحسين قبل مقتله قد أحس بالعطش فطلب الماء ، وبينما يهم بشربه رماه الحصين بن نمير بسهم فسقط قدح الماء من يده ، فاتجه نحو الفرات ليشرب فحال الخصوم بينه . ثم فاجأه سنان النخعى بطعنة من رمحه ، وتبعه شبل الاصبحى فحز رأسه ثم حمله الى ابن زياد فنكث ثنايا الشهيد بعصاه !

(٢) لما خذل العراقيون الحسين وتخلوا عنه عرض على ابن زياد أن يتركه يذهب الى مكة ، أو يدعه يسير الى يزيد ليفاوضه أو يرحل الى بلاد بقية المسلمين ليجاهد معهم ، ولكن ابن زياد أصر على استسلامه أو يقاتله .

على ميسرة ابن زياد حملة عنيفة ، ثم وجه ضرباته كذلك ناحية القلب، وعند مغرب الشمس انهزم جند الشام وقتل جميع قوادهم الحصين وشرحبيل وغيرهما ، وفى الصباح قال ابن الاشتر لاصحابه : «انى قتلت فى الوقعة رجلا من أهل الشام كان يقاتل فى أوائلهم قتالا شديدا وهو يقول : أنا الغلام القرشى ، فلما سقط شممت منه ريح المسك فاطلبوه بين القتلى .. »

وكان هذا القتيل هو ابن زياد وجده رجال ابن الاشتر ملقى تحت راية منفردة على شاطىء النهر وقد شرقت يداه وغربت رجلاه .. فجاءوا به لزعيمهم فحز رأسه ، وبعث به الى المختار وهذا أرسله الى محمد بن الحنفية . أما جثته فقد أحرقت وذراها الريح .

وقد مدح الشعراء ابن الاشتر بانتصاره وأنشده شاعره «عبيد الله ابن عمرو » قصيدة أشاد فيها بفوزه جاء فى أولها :

الله أعطاك المهابة والتقى
وأحل بيتك فى العديد الاكثر

واقر عينك يوم وقعة خازر
والخيل تعثر بالقنا المتكسر

وهكذا أراد الله أن ينتقم من قتلة الشهيد ، فقتلوا جميعا فى مثل اليوم الذى لقى فيه استشهاده منذ حوالى خمس سنوات وسبحان المنتقم الجبار .

الفصل التاسع

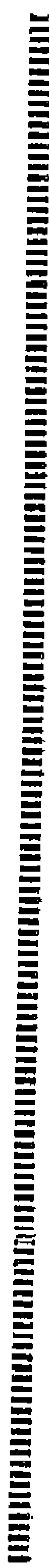
مصرع المختار

ثم أعقب ذلك أن افتضح أمر المختار وظهر أنه كان يدعو لنفسه لاقامة دولة له فى العراق ، وانه اتخذ الدعوة للثأر من قتلة الحسين ليحقق من ورائها أغراضه الدنيوية ، فانفضت القبائل من حوله وارتمت فى احضان مصعب بن الزبير والى البصرة من قبل اخيه ، فهب مصعب للقضاء عليه فى الكوفة وعبر نهر دجلة . وبلغ المختار ذلك فأسرع لملاقاته وعند نهر « البصريين » تقاتل الطرفان ، وكانت الغلبة لمصعب فولى المختار هاربا نحو الكوفة ، وتحصن فى قصر الامارة فحاصره مصعب مدة أربعين يوما ، ولما ضاقت الحال بالمختار من شدة الحصار بدأ يفصح عن نياته لأول مرة فقال لاحد خاصته ما معناه : لعمرى ما كان الا لطلب دنيا فانى رأيت عبد الملك بن مروان قد غلب على الشام ، وعبد الله بن الزبير على الحجاز ومصعبا على البصره ، ونجدة الحرورى على العروض ، وعبد الله بن خازم على خراسان ولست بدون واحد منهم ، ولكن ماكنت أقدر على ما أردت الا بالدعاء الى الطلب بثأر الحسين » .

وهكذا كشف الرجل القناع ، ثم أسرع وامتطى فرسه ولبس درعه واتجه نحو باب المدينة وهو يقول : « قبح الله العيش بعد ما أرى » وما كاد يصل بأصحابه الى البوابة حتى صرخ فى الحارس قائلا « افتح يا بواب » .

وانفتح الباب وسرعان ما انطلق بفرسانه وواجه خصومه وظل يكر ويفر حتى انكشف مكانه فحمل عليه أخوان من بنى حنيفة من أصحاب « المهلب بن أبى صفرة » (عدو الخوارج الاكبر) فضرباه بالسيف حتى سقط قتيلا ثم حزا رأسه وأتيا به الى مصعب . وهذا بعثه الى أخيه عبد الله بمكة . وكان هذا فى رمضان سنة ٦٧ هـ .

وهكذا اختفت دولة الشيعة فى الكوفة بعد أن عمرت حوالى عام ونصف العام .. وبعد أن أدت مهمتها وهى القضاء على قتلة الحسين ، وبذلك خلا الجو لآل الزبير فى العراق .



الفصل العاشر

مقتل مصعب بن الزبير

لم يهنأ الزبيريون بملك العراق طويلا ، ذلك أن عبد الملك بن مروان عندما بلغه خبر انتصار مصعب وقتل المختار أوجس خيفة منه وداخلته الوساوس من الزحف اليه وانتزاع الشام منه ، فاجتمع برجاله وقال لهم : « أن مصعب بن الزبير قد قتل المختار ودانت له أرض العراق وسائر البلدان ولست آمن أن يغزوكم فيعقر بلادكم ، وما من قوم غزوا في عقر دارهم الا ذلوا فما ترون ؟ »

وقال أصحاب المشورة : رأينا أن نزحف اليه فورا ، وقال أخوه « بشر بن مروان » : « أرى أن تجمع اليك أطرافك وتستجيش جنودك ، وتضم اليك قواصيك وتسير اليه وتلف الخيل بالخيل والرجال بالرجال والنصر من عند الله » .

وسرعان مابعث عبد الملك رسله في مختلف الاقاليم لجمع المتطوعة والأنصار وتكامل له جيش ضخم كان من رجاله موسى بن نصير . انطلق به نحو العراق فلما بلغ «مسكن» قرب شاطيء دجله شمالي العراق بعث لمصعب يؤمنه على نفسه « وأن يدع دعاءه الى أخيه ، ويدع هو دعاءه الى نفسه ويجعل الامر شورى بين المسلمين » فلم يقبل مصعب وأجابه «السيف بيننا» .

وفي « دير الحانات » التقى الطرقان وظل الحرب بينهما سجالا ، وفجأة توقفت قبائل ربيعة عن القتال وكانوا على ميمنة جيش مصعب ، ثم وقفوا على الحياد فضعفت بذلك جبهة الزبيريين فلم يهن هذا عزم مصعب ، وظل يقاتل بصحبة ابن الاشتر حتى قتل الاخير وانكشف مكان مصعب فحمل عليه «عبد الله بن ظبيان المرواني» وضربه من خلفه بالسيف فخر صريعا ثم قطع رأسه وأتى به عبد الملك . فحزن عليه وقال: « وددت أنه قبل الصلح وأني قاسمته مالي » .

وقد وقعت هذه المعركة في يوم الخميس منتصف جمادى الأولى سنة ٧٢ هـ (٦٩١ م) ، ثم دخل عبد الملك الكوفة ، فدعا الناس لمبايعته فبايعوه ، وأخيرا انصرف عنها الى دمشق بعد أن وجه الجيوش الى مكة بقيادة قوامة بن مظعون ، ثم تولاها ثانيا الحجاج بن يوسف الثقفي لمقاتلة عبد الله بن الزبير وتوحيد الامة العربية تحت رايته وسلطانه .

الفصل الحادى عشر

مقتل عبد الله بن الزبير

خرج الحجاج بن يوسف قاصدا الحجاز ، فنزل الطائف وأقام بها شهرا ، ثم زحف الى مكة ، ولما وصلها وجد أن عبد الله بن الزبير قد تحصن بأنصاره داخل المسجد الحرام ، فحاصره حصارا محكما ، وطالت مدة الحصار حوالى سبعة أشهر ولما رأى الحجاج أن الحصار لم يأت بالثمرة المرجوة قرر ضرب الكعبة بالمنجنيقات وقام فنصب عددا منها على جبل أبى قبيس . وعين عليها « ابن خزيمة الخثعمى » وانطلقت القذائف الحجرية فتصدعت الأسوار وقتلت الكثير من الأنفس فأصاب الناس الشدة والهلكة .

ولما بلغ اليأس بأنصار ابن الزبير غايته قرر أكثرهم النجاة بأنفسهم وخرجوا الى الحجاج وطلبوا الامان ، وتبعهم كثيرون حتى بلغ من تخلى عن ابن الزبير حوالى عشرة آلاف من المحاربين من بينهم ولدان له أحدهما «حمزة» وبالرغم من ذلك مكث عبد الله بن الزبير صامدا كالطود ولما رأى أن المعركة قد قاربت نهايتها قام فى صباح يوم الثلاثاء الموافق ١٧ من جمادى الاخرى عام ٧٣ هـ (٦٩٢ ميلادية) ودخل على أمه (أسماء بنت أبى بكر) وقال لها :

« يا أماه قد خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ولم يبق معى الا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطوننى ماأردت من الدنيا فما رأيك ؟ »

فقالت أمه :

« انت أعلم بنفسك : ان كنت تعلم أنك على حق واليه تدعو فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولاتمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية ، وان كنت انما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك . وان قلت كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت فهذا ليس فعل الاحرار ولا أهل الدين ، كم خلودك فى الدنيا ؟ القتل أحسن »

فقال عبد الله :

« يا أماه أخاف أن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى » .

فقالت أسماء :

« يابنى ، ان الشاة لايضيرها سلخها بعد ذبحها ، فامض على بصيرتك واستعن بالله » .

فقال عبد الله :

« هذا والله رأيى الذى قمت به داعيا الى يومى هذا ، ما ركنت الى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها » .

فقالت أمه :

« انى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حسنا : أن تقدمتنى احتسبتك ، وان ظفرت سررت بظفرك ، أخرج حتى أنظر الى مايصير اليه أمرك » .

فرد عليها عبد الله بقوله :

« جزاك الله خيرا فلا تدعى الدعاء لى » .

فقالت له :

« لا أدعه لك أبدا يابنى فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق » .

ثم رفعت أكفها الى السماء وقالت : اللهم ارحم طول ذاك القيام فى الليل الطويل ، وذلك النجيب والظمأ فى هواجر مكة والمدينة ، وبره بأبيه وبى ، اللهم قد سلمته لأمرك فيه ورضيت بما قضيت ، فأثبنى فيه ثواب الصابرين الشاكرين »

ثم ضمته الى نفسها وخرج من عندها ، وذهب الى رجاله. وقال لهم بعد أن صعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه :

« أيها الانصار . ان الموت تغشاكم سحابه ، وهو مفرغ عليكم ودقه (مطره) وقاد اليكم البلايا تتبعها البلايا ، فاجعلوا السيوف لها غرضا واستعينوا عليها بالصبر » .

ثم غادر المنبر ، وبينما هو ينظم صفوفه اذ أصابته قذيفة منجنيق فى جبهته فسقطت على الارض ، ولكنه سرعان ماتحامل على نفسه وقام ينشد ويقول :

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا
ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ثم نادى فى رجاله : « اخرجوا الى من بالباب واحملوا على بركة الله ولايلهينكم طلبى والسؤال عنى فانى فى الرعيل الاول » .

وانطلق شاهرا سيفه وخرج من المسجد يصحبه عبد الله بن صفوان واشتد فى قتاله حتى قتل أكثر من كان معه وأحدق به رجال الحجاج من كل جانب ، وضربوه بالسيوف ضربة رجل واحد فسقط مضرجا بالدماء فى ذلك اليوم . وأمر الحجاج أن يصلب فصلبوه .

وعقب مقتل ابن الزبير اندفع زعماء بنى هاشم فى مكة والمدينة يبايعون عبد الملك ، فبايعه عبد الله بن عمر . ثم محمد بن الحنفية ، ثم كذلك أهل خراسان جاءته بيعتهم فى سنة ٧٤ هـ (٦٩٣ ميلادية) وغيرهم اللهم الا فئة قليلة بالنسبة الى كثرة الأمة العربية ، وهى فئة شاذة ظلت خارجة عن الجماعة . وهم الخوارج وقد لاقوا مصيرهم بعد ذلك على يدى الحجاج والمهلب بن أبى صفرة فى عام ٧٧ هجرية وانتهت فتنتهم . ولم يعد هناك فرقة ولا شذوذ ، وبذلك أسدل الستار على دولة الزبيريين وبلغت الأمة الاسلامية أهدافها الوحدوية بعد انقسام بين ابنائها استمر ثلاثة عشر عاما منذ خروج الحسين الى الكوفة فى عام ٦١ هجرية الذى انتهى بمقتل عبد الله بن الزبير ، وذهب كل مدع للخلافة وأصبح على عرش الدولة خليفة واحد هو عبد الملك بن مروان وهو وحده الذى يدعى « آمير المؤمنين » لا ينازعه فى هذا اللقب منازع .

ونستنتج من تلك الحوادث التى مرت بنا أن أسباب خذلان عبد الله ابن الزبير وانفضاض أنصاره وأولاده من وله يرجع الى عدة عوامل فى شخصية الرجل :

أولها ـ انه كان يتعالى على بنى هاشم ، وكان يعمل دائما على كل ما يغيظهم ، ولما رأى أن ذكر النبى والصلاة عليه فى أثناء الخطبة يزيدهم زهوا وتشراب أعناقهم فرحا لسماع ذكره والصلاة عليه أسقط ذكره صلى الله عليه وسلم من خطبته ، ولما فوتح فى ذلك قال :

« والله لايمنعنى أنى أذكره علانية من ذكره سرا وأصلى عليه ، ولكنى رأيت هذا الحى من بنى هاشم اذا سمعوا ذكره اشرأبت أعناقهم وأبغض الأشياء الى ما يسرهم » .

وكان ذلك من أهم الأسباب لنفور الهاشميين منه وأبوا مبايعته فقال لهم :

« لتبايعن أو لأحرقنكم بالنار » .

ولكن تهديده لم يلن قناتهم فأمر بحبس كبيرهم «محمد بن الحنفية» مع خمسة عشر من أشراف الهاشميين ، مما نفر القلوب من حوله .

وثانيها ـ أنه رفض الذهاب مع الحصين بن نمير الى الشام للمبايعة وقد كانت الاغلبية في دمشق تميل الى ذلك، وقد مر بنا هذا قبيل اجتماع الجابية .

وثالثها ـ انه كان موصوفا بالبخل وحبس المال عن الذين يناضلون من أجله في العراق ، ولم يكرم قوادهم الذين حضروا اليه بصحبة أخيه مصعب لتجديد البيعة له ، مما أدى الى خروجهم عليه وانسحابهم من صفوف مصعب وهو يقاتل جند عبد الملك في دير الجاثليق بعكس عبد الملك الذي كان كثير العطايا لأنصاره .

ورابعها ـ مساندته لأبيه الزبير الذي بايع علي بن ابي طالب في أول الامر ثم نقض بيعته وانضم الى طلحة والسيدة عائشة وانطلق يؤيد معاوية معهم .

وخامسها ـ احلاله القتال في الحرم وهو لم يحل لأحد من بعد النبي عليه الصلاة والسلام .

كل هذه الاسباب نعتقد أنها كانت من أهم العوامل التي أدت الى فشل عبد الله بن الزبير وخاتمته المؤلمة .

عرف موسى منذ صغره بأنه طموح لاحد لرغباته وأنه اذا أراد شيئا فهو يحاول أن يناله مهما كلفه ذلك من عناء وتدبير • كما عرف بأنه نزاع الى السيطرة وحب السلطان • والآن بعد أن دانت الاقطار الاسلامية لآل مروان وتوحدت على أيديهم فهو يأمل أن يحقق لنفسه أقصى ماكان يأمل أن يناله وهو الانفراد بحكم اقليم من هذه الاقاليم الكبيرة في الامبراطورية العريضة التى أظهر لها من الاخلاص والتفانى فى مختلف ميادين القتال فى سبيل انشائها ما جعل الخليفة عبد الملك يخصه بالعطف البالغ والمزيد من عنايته ورعايته •

وبينما هو يفكر فى ذلك ويدبر أمره للوصول الى غرضه عن طريق البصرة واسناد أمرها الى بشر بن مروان أخى الخليفة بجانب ولايته على مولاه عبد العزيز واتته الفرصة بعزل خالد بن عبد الله الأموى عن امارة الكوفة مع تعيين موسى بن نصير وزيرا على خراجها وجباية أموال أراضيها •

وهكذا بدا الحظ يبتسم لموسى وبدأت أمانيه تأخذ مكانها فى طريق التحقيق •

تولى موسى أمر خراج البصرة فى أواخر عام ٧٣ هـ الموافق لعام ٦٩٢ ميلادية فسار فى عمله بجد ونشاط ، وكان همه منصرفا كله الى اشباع رغباته من الخيرات واحاطة نفسه بهالة من السلطان والنفوذ الذى ظل يحلم بهما طيلة عمره وفتح قصره للمادحين والانصار وأسرف فى عطائه اسرافا لا حد له مما أغضب الخليفة عبد الملك وآمره برد ما استحوذ عليه من أموال الدولة التى بددها فى سبيل شهرته والتشبه بالخلفاء والولاة •

ولما عجز عن تسديدها ووجد أنه واقع لامحالة فى يد الخليفة ليقتص منه جزاء اسرافه لم يجد أمامه سوى الفرار من البصرة والتوجه الى صديقه عبد العزيز بن مروان فى مصر ليستجير به للمرة الثانية •

الفصل الثالث عشر

موسي اللاجئ

خرج موسى من البصرة خائفا مترقبا حتى وصل الى مصر فأدى عنه مولاه عبد العزيز بعض المال المطلوب وشفع له فى الباقى ، وظل مقيما بجوار عبد العزيز فى مصر .

وفى أثناء اقامته أظهر لمولاه اخلاصا منقطع النظير وحمل عنه كثيرا من أعباء الحكم ، وكان سفيره ومستشاره الأول فى مختلف الأمور .

ولما طلب الوليد بن عبد الملك من عمه عبد العزيز أن يزوجه ابنته «أم البنين» كان موسى رئيس بعثة الشرف التى حملت العروس الى دمشق فازدادت بذلك محبته عند عبد الملك وابنه الوليد وظلت العروس من جانبها تزكيه دائما لدى زوجها وعمها « وتنمية مكانته عندهما » كما يقول ابن حيان الأمر الذى ضاعف من منزلة موسى لدى المروانيين وعد من رجالهم المخلصين .

وبمناسبة ذكر أم البنين كان عمها أمير المؤمنين يكن لها التقدير الكامل لما لمسه فيها من سعة الأفق والنظر الى الأمور بنظرة العالمة الخبيرة حتى انه لم يعرف عنه انه رفض لها طلبا أو رجاء أو شفاعة لأحد: دخل عليها يوما كعادته يسألها « هل من حاجة ؟ »

فقالت :

« نعم لى حاجة يا عماه » .

فقال لها :

« وقد قضيت كل حاجة لك الا ابن قيس الرقيات » .

فقالت له :

« لا تستثن على شيئا يا عماه » .

والظاهر أن ردها كان فيه شيء من الحدة نظرا لما كان لها من دلال عليه لم يقبله منها فما كان منه الا أن « لطمها لطمة خفيفة على وجهها » فوضعت يدها على خدها تتقى بذلك ضرباته .

فقال لها بعد أن شعر بتأنيب ضميره .

« يابنتى ، ارفعى يدك فقد قضيت كل حاجة لك وان كانت ابن قيس الرقيات » .

فقالت له :

« ان حاجتى قيس الرقيات تؤمنه ، فقد كتب الى أبى يسألنى أن أسألك ذلك » .

فرد عليها عبد الملك قائلا :

« هو آمن فمريه يحضر مجلس العشية » .

وابن الرقيات هذا هو عبيد الله بن قيس الرقيات . وكان شاعر مصعب بن الزبير ومن معارضى آل مروان ، ولما قتل مصعب ظل مختفيا عن أعين عبد الملك حوالى العام ، ولما ضاقت نفسه من المحبس خرج من الكوفة متلفحا بالليل الاسود ، واتخذ طريقه نحو مدينة الرسول وهناك استجار بعبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، فقال له جعفر :

« ويحك ما أجدهم فى طلبك وأحرصهم على الظفر بك . ولكنى سأكتب الى أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان فهى زوجة الوليد بن عبد الملك . وعبد الملك أرق شىء عليها » .

وبعث اليها جعفر طالبا شفاعتها للشاعر وأرسل فى الوقت نفسه كتابا الى عبد العزيز يطلب منه أن يكتب لابنته يسألها الشفاعة ، وكان ما تقدم ذكره .

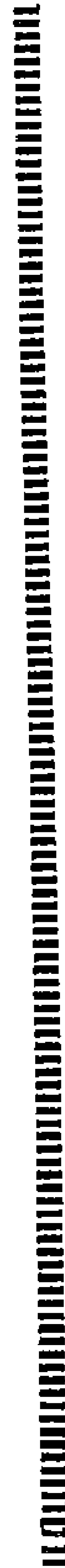
عاش موسى بن نصير فى مصر بضع سنين كان فى خلالها يمنى نفسه بحكم ولاية من ولايات الدولة يسترد بها ما فقده فى البصرة من الجاه والنفوذ ولم يطل به الوقت ، فسرعان ما طرق الحظ بابه للمرة الثانية فى حياته حاملا معه فى خلال عام ٧٩ هجرية الموافق لسنة ٦٩٨ ميلادية رغبة مولاه « عبد العزيز بن مروان » فى تعيينه واليا على افريقية وما يليها وهى التى بدأ المسلمون فى فتحها منذ العام الثانى والعشرين للهجرة والتى كانت ادارتها تابعة لوالى مصر وقت ذاك . وكان ذلك خلفا لحسان بن النعمان الغسانى الذى غضب عليه عبد العزيز وعزله عنها .

وهنا يغلب علينا الظن أن عزل حسان بعد انتصاراته المظفرة فى افريقية والتى سيرد ذكرها فيما بعد لم يكن الا بتدبير سابق ، وأن موسى ابن نصير قد قام بالدور الكبير فى هذا العزل ليفسح لنفسه الطريق لأن منطق الاحداث وتاريخ موسى يؤيدان ذلك نظرا لما فطر عليه من التطلع الى حب السيطرة والتحكم وما كان يغلب عليه مما لا يكاد رئيس يسلم منه « وهو الحقد والحسد والمنافسة » كما جاء فى كتاب نفح الطيب .

وسواء كان تعيين موسى واليا على افريقية بتدبير سابق منه أو بمساعدة الحظ له فاننا نرى اتماما للفائدة وقد تعرضنا لذكر افريقية أن نقول كلمة عنها وعن تاريخها وغزو الاسلام لها قبل أن نسير اليها بصحبة الفاتح الكبير .

القسم الثانى

شمالى افريقية والشعوب التى حكمته



الفصل الاول

أفريقية

أطلق العرب اسم افريقية فى أول الأمر على بلاد تونس أو المغـرب الأدنى ، ثم تطور هذا الاسم فشمل كل بلاد المغرب ابتداء من مدينة برقة حتى المحيط الاطلسى ، ثم عمم فيما بعد فشمل القارة الافريقية بأكملها ، وبعد ذلك استعيض عنه باسم المغرب •

وكان لفظ المغرب يقتصر فى بادىء الامر على بلاد المغرب ابتداء من بلدة بجاية شرقا الى المحيط الاطلسى غربا ، ثم اتسع معناه فأصبح يضم كل مدن افريقية الشمالية ابتداء من حدود مصر الغربية حتى ســاحل المحيط ، وقسمه العرب ثلاثة أقسام :

الاول ــ المغرب الأدنى ويضم برقة وطرابلس وتونس •

الثاني ــ المغرب الاوسط ويبـــدأ من حـدود الجزائر شرقا حتى وهران •

الثـــالث ــ المغرب الاقصى ويبـدأ من مدينة تلمسان حتى المحيط الأطلسى •

ويقول أغلب المؤرخين ان أول من حكم القارة الافريقيـــة هو الملك العربى « أفريقى بن قيس » المنتمى الى قبيلة قيس اليمنيـــة ، وسميت القارة الافريقية باسمه وان شعوب شمالي افريقيـة والسودان والصحراء الكبرى من المحيط الهندى والبحر الاحمر الى المحيط الاطلسى سواءكانوا من النازحين من اليمن أو من جنوب الصـــحراء أو من الساحل الشرقى للبحر الأبيض ــ ينتمون الى الاصـــــل العربى وقد تحققت لهم وحدة الجنس منذ أقدم العصور •

ثم غزت روما بوثنيتها الشرق ومصر وشمالى افريقية ، وجاءت بعدها المسيحية فاعتنقها بعضهم وظلت الاغلبية متمسكة بالوحدانيـــة ورفضت اعتناق الثالوثية وثارت على كنيسة روما ونادت بالمســاواة بين الناس وامتدت ثورتها حتى شملت ليبيا وبرقة ، وكانت هذه الثورة أحد العوامل التى ساعدت على القضاء على النفوذ الرومانى وسيطرته على شمالى افريقية •

ولما سيطرت الامبراطورية الشرقية «بيزنطة» على المغرب فى القرن

السادس الميلادى وقضت على قبائل الوندال التى نزحت من اسبانيا واستقرت فيه ـ أرادت أن تصرف أبناء شمالى افريقية عن عقيدتهم ، فتصدى لها أهل المغرب ، وظلوا فى صراع دائم معها الى أن جاء العرب المسلمون من شبه الجزيرة ومصر حاملين مشعل الوحدانية والاعتراف بكرامة الانسان كما أراد الله لها أن تكون : « ولقد كرمنا بنى آدم » فهرع اهل المغرب يعلنون دخولهم فى دين اخوانهم الجديد ويعتنقون عقيدتهم السمحة الكريمة ، وقد ساعدت على ذلك رواسب الأصل الواحد فى كل من أولئك وهؤلاء .

وهكذا حقق الاسلام الوحدة الكاملة بين هذه الشعوب التى فرقها السعى على الكلأ والماء منذ أقدم العصور ، وبذلك زال سلطان الغرب المسيحى عن شمالى افريقية وأصبح هذا الجزء من افريقية عربيا مسلما.

وكانت بلاد المغرب تعرف أيضا فى العصور الوسطى ببلاد البربر نسبة الى كلمة « بربار » وينقسم مدلول هذه الكلمة أربعة أقسام :

الاول ـ فى عهد هومير كانت تطلق على القبائل المعقدة اللهجة واللغة .

والثانى ـ فى عهد هيرودت كانت تطلق على بعض الامم الغربية .

والثالث ـ فى عهد بلوتوس خضع الرومان أنفسهم للاهانة وأطلقوا الكلمة على أنفسهم خلا ايطاليا ثم وصموا بذلك الاسم القبائل المتوحشة خارج الامبراطورية .

والرابع ـ فى عهد العرب عربت كلمة بربر وبرابر ، والبربر هم سكان المغرب الاصليون ، وهم الذين سبقذكرهم بأنهم انحدروا منجنوب الجزيرة العربية ، وقد قال بذلك ابن خلدون ورجح عدد كبير من المؤرخين رأيه لكثرة ما رأوه ولمسوه من التشابه بين البربر وبين العرب فى الصفات واللهجة والطباع والاتفاق معهم فى كثير من المزايا كحب القتال والغزو والشجاعة والشهامة والمروءة ، وكذلك وحدة الخلق والتعصب لقوميتهم والصبر الطويل على المصائب وغير ذلك من الطباع والخصال المشهورة عن العرب فى مختلف أمور الحياة .

ويرى الدكتور السيد عبد العزيز سالم ان البربر ينقسمون من حيث الصفات الجسمانية الى نوعين مختلفين :

الاول : وهو أغلبية سكان البلاد يتميز بلونه الاسمر وشعره الاسود ورأسه المستدير وبروز خديه وقصر أنفه وتقوس جبهته ٠

والآخر ـ ويقتصر على سكان الريف وجبل جرجرة بالمغرب الاوسط ويتميز بشقرة لون الشعر وزرقة العينين واستطالة الرأس ودقة الأنف ورقة الشفتين وتسطح الجبهـة ، ولعلهم الأفارقة الذين ذكرهم المؤرخون من بقايا الشعب القرطاجنى (الفينيقيون) ٠

أما من الوجهة الاجتماعية فينقسم البربر الى طائفتين متباينتين :

طائفة البربر الحضر ويسمونهم البرانس ٠

وطائفة البربر الرحل ويعرفون بالبتر ٠

والبرانس كلمة عربية أطلقها العرب على السكان المتحضرين الذين يتصلون بحضارة الامم التى تعاقبت على حكمهم مما سيرد ذكره فى هذا الكتاب وينقسمون الى قبائل متعددة منها كتامة ، وأزواجة، ومصمودة، وأورقية وصنهاجة وهذه كانت من أعظم قبائل البرانس حضارة وقوة ٠

أما قبائل البتر فهم بدو رحل يعيش أغلبهم على الرعى والاغارة على السهول وينقسمون الى قبائل منها اداسة ولوانة وانفوسـة ونفراوة ورجراجة زناتة وهذه أيضا ضربت بسهم وافر فى الأخذ بأساليب الحضارة كما يقول ابن خلدون وكانت أعظم قبائل البتر خطرا ٠

ويرى الدكتور حسين مؤنس ان العـرب هم الذين قسموا البربر الى هاتين الطائفتين على نحو انقسامهم هم أنفسهم الى شعبى القحطانيين والعدنانيين وأن البربر يجتمعون الى جد أكبر اخترعوا له اسما اشتقوه من اسم الجنس وسموه « بر بن قيس » الذى مر بنا ذكره ٠

كما يقول أيضا فى أصل كلمتى برانس وبتر أن البرانس نسبة الى برنس بن بر فسموا بالبرانس ٠ والبتر نسبة الى مادغيش بن بر الملقب بالأبتر فسموا بالبتر ٠

على أن بعض الباحثين من أمثال « وليم مرسيه » يرون أن البرانس سموا كذلك لتدثرهم بلباس للرأس يعرف بالبرنس ، وأن البتر كانوا لا يرتدون هذا الزى وتجردوا من البرنس فسموا بترا ٠

أما الشعوب التى تعاقبت على حكمهم الى أن جاء لهم العرب فاتجين فالى القارىء نبذة عن تاريخ كل منهم ازديادا للمعرفة واتماما للبحث .

الفصل الثانى

المغرب في ظل الفينيقيين

اتصل الفينيقيون بالمغرب عن طريق الغزو التجارى فى أوائل القرن الثانى عشر قبل مولد المسيح ، فلقد كانوا أصحاب تجارة واسعة فى مدينتهم «صور» ولما عظمت تجارتهم تطلعوا الى مد نشاطهم التجارى الى البلاد التى فى حوض البحر الابيض المتوسط ، وبنوا لذلك الاساطيل البحرية الضخمة ، ولما لاقت بضاعتهم رواجا كبيرا عند شعوب شمالى افريقية أخذوا يهجرون « صور » وينشئون قواعد تجارية لهم فى هذه البقاع • وكانت أولى اقامتهم فى الارض التى بين « برقة وطرابلس » المعروفة « بصرت » ثم أسسوا لانفسهم فى عام ١١٠١ ق٠م مدينة أتيكا على الساحل الغربى لخليج تونس • وأتبعوها انشاء عدة مدن أخرى منها سوسة وبنزرت وعنابة ومليلة وطنجة ثم مدينة العرائس على ساحل المحيط •

وفى عام ٨١٤ ق٠م قاموا ببناء عاصمة لهم وأطلقوا عليها اسم «قرطاجنة» وكان موقعها فى جوف الخليج الذى يصب فيه نهر مجردة ووادى مليانة وقاموا بتحصينها تحصينا قويا لتدرأ عنهم هجمات الخصوم وبلغ امتداد سورها حوالى أربعة وثلاثين كم فى ارتفاع ثلاثة عشر مترا وسمك يزيد على ثمانية أمتار ، وكانت تتخلله أبراج منيعة بين كل برج وآخر تسعة وخمسين مترا •

وقد اختاروا تشييدها فى هذا الموقع الاستراتيجى ليساعدهم على مد نفوذهم التجارى مع مختلف الشعوب من افريقيين وغربيين على السواء .

ولما اشتد ساعد الامبراطورية الفارسية واحتلت مدينتهم «صور» وفرضت سيطرتها على مصر أيضا وبرقة هبت قرطاجنة لتشارك هذه الامبراطورية فى النفوذ الدولى وتطلعت الى بسط نفوذها على بعض جزر البحر الابيض ونجحت فى عام ٥٣٥ ق٠م فى امتلاك الجزء الغربى من صقلية ، وكان الاغريق يحكمون الجزء الاكبر من الجزيرة •

وقد رأت قرطاجنة فى الاغريق أعظم الخطر على نفوذها ، فقررت فى عام ٤٨٠ ق٠م اعلان الحرب عليهم وأبحر جيشها الى بلدة بالرمو فى صقلية لمنازلتهم ، ولكن الاغريق قضوا على هذا الجيش ، فاضطرت الى التوقف عن استعمارها البحرى ، ولكنها كانت بين كل حين وآخر تشن

عليها الحملات بغية احتلالها ، غير أن أهلها كانوا دائما يحبطون غاراتها، وظل القرطاجنيون على تلك الحال الى أن سقطت مدينتهم « صور » ثانيا في يد الاسكندر الاكبر في سنة ٣٣٢ ق٠م فأحجموا عن غزو صقليــة مؤقتا ٠

وفي عام ٢٨٩ ق.م مات « اجانوكل » زعيم صقلية وعدو قرطاجنة الاكبر وتلا موته انقسام في داخل حزبه شجع قرطاجنة على التدخـل ثانيا في صقلية ، فتصدى لها الايطاليون الذين استنجدوا بروما وبذلك وقفت قرطاجنة وجها لوجه أمام روما ٠

اندفع الرومان الغربيون لنصرةالمستجيرين بهم ، وأمكنهم تحريرهم من قبضة قرطاجنة ، ولما فرغوا من ذلك عزموا على محاربة أهل قرطاجنة في عقر دارهم بالمغرب ، ونزلت قواتهم على الشاطىء ، فقابلتهم قرطاجنة بجيوشها وأمكنها الانتصار عليهم في عام ٢٥٥ ق٠م ، ولكن روما لم تذعن للهزيمة فواصلت الحرب ضدها حتى أرغمتها على الاعتراف بسيادتها على صقلية ثانيا ودفع اتاوة سنوية لها ٠

وفي خـــلال هذا الصراع راود البربر فكرة الاستقلال بالمغرب وانتزاعه من سيطرة قرطاجنة وقاموا بزعامة «مانو» يؤيدهم بعض العناصر الحاقدة ، وفرضوا سيطرتهم على الطريق الموصل بين قرية تونس القديمة ومدينة قرطاجنة ، وقاموا في سنة ٢٢٤ ق٠م بمحاصرة مدينتى أوتيكا وبنزرت ، ولكن حصارهم لم يدم طويلا ، فقد استطاع القرطاجنيون بما لديهم من قوة فك هذا الحصار والقضاء على هذه الثورة الشعبية ٠

وعقب ذلك قررت قرطاجنة محاربة روما ثانيا وأعدت جيشا كبيرا بقيادة « أميلكار » لاحتلال اسبانيا استعدادا للزحف على روما ، وسرعان ما عبر الجيش المضيق واستولى على الشاطىء الشرقي لاسبانيا ، ففزعت روما وخشيت أن تتحالف قرطاجنة وغاليا (فرنسا) عليها ، ولكنها آثرت الوقوف حتى تتبين لها خطة المهاجمين ٠

وواصلت قرطاجنة الزحف بقيادة « هانيبال » الذى خلف والده في القيادة ، فاحتلت المدن في سهولة ويسر ، وتوغلت في اسبانيا حتى نهر وادى آنة ، وقضت على كل مقاومة ، واستولت على المناطق الغربية من نهر ابرة ، ثم توج هانيبال انتصاراته بغزو مدينة ساجونتى بعـد حصار طويل وذلك في خلال عام ٢١٩ ق.م وكانت هذه المدينة خاضـعة لروما ، وهنا تكشفت لروما نيات قرطاجنة فطلبت منها الكف عن القتال

وتسليم هانيبال لها ، ولما رفضت عزمت روما على حربها ، وبدأت في ذلك في أوائل عام ٢١٨ ق٠م ، ولما علم هانيبال أمر جيشه المزود بالفيلة بالزحف نحو روما ٠

وغادر هانيبال ميادين اسبانيا في شهر يونيو سنة ٢١٨ ق٠م واجتاز نهر ابرة وعبرة جبال البرت التى تعرف خطأ «بالبرانس» ثم تخطى نهر الرون في أواخر أغسطس ، واخترق جبال الالب في خلال خمسة شهور ، وسرعان ما تقابل مع جيوش روما فدارت بينه وبينهم معارك طاحنة كان أشدها المعركة التى وقعت في أغسطس عام ٢١٦ق٠م قرب مدينة (كان) وانتصر فيها هانيبال انتصارا خالدا . وكان في استطاعته أن يزحف الى روما ويحتلها ، ولكنه تريث في المسير اليها حتى يأتيه المدد الذى طلبه من اسبانيا ، وطال انتظاره حتى سنة ٢٠٨ ق٠م

وفي أثناء ذلك تسرب خبر موقفه المحرج الى أسماع روما فقررت في التو انتهاز الفرصة ، وأرسلت من خلفه القائد الرومانى سيبيوس لاحتلال اسبانيا ، ولما تم له النصر عزم على غزو قرطاجنة وقام في خلال عام ٢٠٤ ق٠م وعبر بجيشه البحر ونزل بالقرب من مدينة أونيكا ودارت بينه وبين القرطاجنيين معارك عنيفة استولى في أعقابها على بعض مدن الشاطىء المجاورة لمدينة قرطاجنة ولما اشتد الخطر على قرطاجنة استغاثت بهانيبال فلبى النداء مسرعا ووصل في صيف سنة ٢٠٣ ق٠م ، ووقعت المعركة الكبرى بين الفريقين في شهر أكتوبر من العام التالى بجوار بلدة زاما جنوب شرق العاصمة وانتهت بهزيمة هانيبال وفراره الى مدينة سوسة ، فطلب القرطاجنيون الصلح فاشترط عليهم سيبيوس شروطا قاسية قبلوها في سنة ٢٠١ : منها الاعتراف بسيادة روما ، وأن تؤدى قرطاجنة تعويضا ضخما لها ، ثم عين القائد البربرى ماسينيا حاكم ولاية نوميديا الغربية التى بقرب قرطاجنة مراقبا عليها ٠

حاول هانيبال بعد ذلك أن يتجه بقرطاجنة نحو الاستقرار لبناء اقتصادها المنهار وتنظيمه ، ولكن روما خشيت أن يكون في ذلك بداية لاعادة سيطرة قرطاجنة من جديد ، فحكمت عليه بالموت ، ولكنه هرب من وجهها وآثر الانتحار في عام ١٨٤ ق٠م ٠

وبالرغم من شروط المنتصرين القاسية استطاع القرطاجنيون أن يبنوا اقتصادهم وأن يعوضوا الخسائر التى سببتها حروبهم الطويلة .

وشيئا فشيئا أخذت قرطاجنة تستعيد مكانتها التجارية فأثرت أثراء

فاحشا وازدهرت مدنها ، وجاب ابناؤها البحر ثانيا بحثا وراء اسواق جديدة لتصريف تجارتهم وسلعهم حتى اذا كان عام١٥٣ق.م حضر الى قرطاجنة « كانون الرومانى » موفدا من قبل روما لفض النزاع القائم بين قرطاجنة والحاكم البربرى ماسينيا لاغتصاب عدة قرى تابعة لقرطاجنة ، فهال كانون ما رأى من الثراء الذى تنعم فيه قرطاجنة ، فخاف مغبة ذلك على نفوذ بلاده ورأت روما ضرورة حل حركة هذا التقدم القرطاجنى بجميع الوسائل ، فنادى كانون بتدمير قرطاجنة تدميرا شاملا .

وأمام هذا هب الشعب القرطاجنى يحصن مدينته وأحس أعضاء اللجنة الرومانية وزعيمهم كانون بذلك فشجعوا ماسينيا بالوقوف فى وجه قرطاجنة ، واندلعت نيران الحرب بين الاثنين وكانت الغلبة فيها بجانب ماسينيا وأصبح قاب قوسين من احتلال العاصمة ، وخشيت روما قوة الزعيم البربرى ، فآثرت التدخل وأرسلت جيشا كبيرا احتل بلدة اوتيكا وخافت قرطاجنة الهزيمة فطلبت الصلح ، فاشترط عليها القائد الرومانى القنصل ماريوس أن تسلم اسلحتها وعتادها فقبلت مكرهة ،ثم طلب من القرطاجنيين مغادرة المدينة والاقامة فى مدينة أخرى ، فعز عليهم أن يتركوا عاصمتهم الحصينة وقرروا الدفاع عنها حتى الموت .

وأمام هذا التحدى قررت روما مهاجمة قرطاجنة وتدميرها ،وزحفت جيوشها بقيادة سيبيون ايمليان فى عام ١٤٦ ق.م ، وحاصرت المدينة ، وقامت باغلاق جميع المنافذ البحرية للحيلولة دون وصول أية نجدات اليها ، ثم بدأ الرومان فى مهاجمتها واستمر هجومهم مدة ستة أيام ليلا ونهارا حتى دخلوها وقاموا بتخريبها تخريبا تاما طمسوا فيه كل معالمها وآثارها التى كانت عنوانا عظيما لما وصل اليه العقل البشرى من تقدم وحضارة كانت تعد من ضمن الحضارات العظيمة التى ظهرت فى العالم القديم ، وانتقل المغرب فى أعقاب ذلك من سيد الى مسود .



الفصل الثالث

المغرب في ظل الرومان الغربيين

بالقضاء على قرطاجنة دان المغرب لسيطرة روما وكانت المنطقة التى وقعت تحت نفوذهم فى ذلك الوقت لا تشمل الا الثلث الشمالى الشرقى من جمهورية تونس الحالية ، ويبدأ من مصب نهر الوادى الكبير المعروف بتوسكا قرب ميناء طبرق ، ثم ينحنى نحو الجنوب الشرقى والشرق حتى هنشيرتينة التى على بعد اثنى عشر كيلومتر جنوب شرق مدينة سفاقص.

وكانت هذه الحدود تشمل مدى ما وصلت اليه مطامع الرومان فى أرض المغرب ، اذ لم يفكروا فى التوسع والسيطرة على مواقع أخرى .

رأت روما بعد أن استتب لها الامر أن تقيم على حكم افريقية حاكما من أهل البلاد حتى تضمن ولاء المغرب فأقامت القائد البربرى «جوجورنا» ملكا وقد خيب جورجونا ظنها فبدلا من أن يسير فى ركابها بدأ يعمل فى الخفاء لاستقلال بلاده ، وسار فى الحكم متجاهلا تعليمات السسيناتور الرومانى « نائب الامبراطور » فوقف هذا منه فى أول الامر موقفا مترددا، وحينما رأت روما أنه قد زاد فى تحديه لها شنت عليه حملة شعواء كتب لها فيها النصر ، وانتزعت منه مدينة باجة فى عام ١٠٩ ق.م . ثم من بعدها بلدة سيرتة .

ولما رأى جوجورنا انه واقع فى يدها هرب الى صهره « بوكاس » ملك ولاية موريتانيا للاحتماء عنده ، ولكن « بوكاس » كان من ذوى المطامع فأقدم على خيانة زوج ابنته وسلمه الى أعدائه وذلك فى خلال عام ١٠٥ ق.م نظير أن يساعدوه فى ضم الثلث الغربى من ولاية نوميديا التى كانت تابعة لحكم جوجورنا ، وقد حقق له الرومان مطامعه ومنحوه كذلك لقب « صديق الشعب الرومانى » ، ولكن هذا الخائن لم ينعم بهذا اللقب طويلا اذ سرعان ما مات مشنوقا فى يناير من العام التالى !.

ثم ظل المغرب بعد ذلك حوالى خمسين عاما ينعم بشىء من الهدوء حتى اذا أهل عام ٧٠ ق.م كانت جرثومة الحقد السياسى قد بدأت تتفشى فى نفوس الرومان فانقسموا الى فريقين : فريق يؤيد يوليوس قيصر ، وفريق يؤازر خصمه القنصل بومبى .

وترجع أسباب الانقسام الى انفراد بومبى بمركز القنصلية فى عام ٥٢ ق.م مخالفا الاتفاق الثلاثى الذى قسم حكم روما بينه وبين قيصر

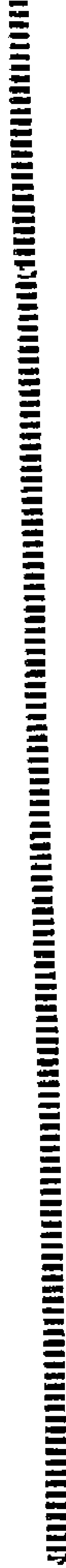
ومرفص قراسوس المعقود فى سنة ٦٠ ق٠م وأراد قيصر أن يحمل مجلس الشيوخ على انتخابه أيضا قنصلا فأحبط بومبى مسعاه ، وأرسل اليـــه يأمره بالحضور من غالة مجردا من جيشــــه ، ولكن قيصر أجاب بومبى بقدومه بصحبة جيشه والسيطرة على روما ففر بومبى من وجهه الى اليونان فى صيف عام ٤٩ ق٠م غير أن قيصر لم يترك عـــدوه ينعم فى منفاه بل زحف اليه وحاربه حتى أرغمه على الفرار ثانيــا وكانت وجهة بومبى فى هذه المرة مصر فوصلها فى أوائل سنة ٤٨ ق٠م

ونتيجة لهذا الانقسام عم الاضطراب أنحاء المغرب وأصبحت أرضه مسرحا للقتال بين أنصار هذا وأنصار ذاك ، وتغلب حزب بومبى فى أول الامر . ولكن سرعان ما لحقته الهزيمة فانقسم أجناده على أنفسهم ، فانضم فريق منهم الى قيصر ، ولحق الفريق الآخر بزعيمه فى مصر، وبذلك خلا الجو لقيصر ولم يأت عليه عام ٤٦ ق٠م حتى كان قد قضى على كل أعدائه وأصبح المغرب كله يدين بالطاعة له .

ثم عمد قيصر الى تغيير النظام الادارى للمغرب بما يتفق مع سياسته فقضى على مملكة نوميديا وأنشأ ولاية جديدة فى الجزء الشرقى من نوميديا سماها « افريقية الجديدة » وبعد مقتله على يد « بروقوس » اشتد النزاع بين أنصاره وأنصار الجمهورية وشهد المغرب من جـــراء ذلك عصرا من الاضطرابات ٠

ولما تولى الامبراطور أغسطس العرش جعل القائد البربرى « جوبا الثانى » وهو الذى تربى فى قصور روما ، فســـــار فى الحكم على هدى المستعمرين فغضب عليه الشعب ، وثار فى وجهه عدة مرات مما حرمه هو وسادته لذة الاستقرار الى أن مات في سنة ٢٤ بعد مولد المسيح وخلفه ابنه « بطليموس » وكان مثل أبيه خاضعا للرومان ، فتآمر عليه الحاقدون فغضب عليه الامبراطور «جاليكولا» (٣٧ ــ ٤١ ميلادية) فقتله بالسم .

وبالرغم من ان البربر كانوا يبغضونه لرومانيته فان طريقة موته قد أثارت كوامن الحقد فى نفوسهم ، فهبوا بالثورة ضد المحتلين فى مقاطعة موريتانيا ثم امتدت شرارتها حتى وصلت الى جبال الاطلس ، ولما عجز الامبراطور « كلوديوس » عن اخمادها قام فى عام ٤٢ م بتقسيم الولاية الثائرة الى قسمين موريتانيا الطنجية ، وموريتانيا القيصرية ٠ وكان لهذا التقسيم أثره فى نفوس البربر فشغلوا به حينا حتى انطفأت جذوة الثورة فى قلوبهم مما مكن للرومان بأن يعيشوا فى جو يغمره الهدوء والاستقرار فترة احتلالهم للمغرب الى أن سيطر عليه الوندال فى سنة ٤٢٩ م ٠



الفصل الرابع

المغرب في ظل الوندال

في عصور ما قبل التاريخ كان يسكن سواحل بحر البلطيق قبائل اشتهرت بالهمجية الوحشية تلك هي القبائل الجرمانية المعروفة بقبائل الوندال ، ولما اشتدت عليها وطأة العيش في القرن الاول الميلادى آثرت بعد الدار على قربها ورحلت نحو السهول التى بأعالى نهرى الاودر والفستول.

وفى القرن الثانى بعد مولد المسيح ابان هجرة قبائل القوط الاقوياء انقسموا فريقين هما : السيليون والحسديون « نسبة الى زعمائهم » وعاشوا فى منطقة الراين الاوسط مفككى الاواصر ، ولما بلغت الامبراطورية الرومانية اسوأ حالات الضعف نتيجة الصراع الأسرى اضطر الأباطرة الضعفاء ان يستعينوا بفريق من الوندال لحمايتهم والاعتماد عليهم فى المحافظة على أمن البلاد .

وكان الوندال بسليقتهم نزاعين الى السلطان فوجدوا فى ذلك الامل المبتغى ليوصلهم الى الغرض المنشود .

وساروا فى مناصبهم لا لخدمة الامبراطورية ، بل لخدمة أنفسهم وما يصبون اليه من زعامة وسيطرة .

وفى الوقت الذى كانت فيه قوة الامبراطورية تسير من ضعف الى ضعف كانت قوتهم آخذة فى الازدياد ، فقد اتحدوا مع اخوانهم الاوائل ، ثم تبع ذلك اتحادهم مع قبائل أخرى من فصيلتهم أشد همجية منهم ، هى قبائل الالان والسويف ، ولما بلغوا من القوة منتهاها تمردوا على الدولة وانطلقوا الى منطقة الراين وأراضى غالة (فرنسا) ومنها عبروا جبال البرت ووطئوا أرض اسبانيا فى عام ٤٠٩ م ، ثم قسموا اسبانيا فيما بينهم فاختار الحسديون « الوندال » والسويف منطقة الشمال الغربى اقليم جليقية واستقروا فيها . وقد أقرتهم الامبراطورية على ذلك فى سنة ٤١١ م خوفا منهم واكتفاء لشرهم ، واشترطت عليهم أن يحافظوا على حرمة جيرانهم من الشعوب الاخرى ، ولكنهم فعلوا عكس ذلك .

أما اخوانهم السيليون فاختاروا مناطق الشرق والجنوب ووسط البلاد سكنا لهم ، وأطلقوا على هذه الاجزاء اسم « فندالوسيا » نسبة الى قبائلهم الوندالية وهو الاسم الذى حوره العرب فيما بعد الى «أندلس» ،

ثم أطلقوا فى النهاية على اسبانيا كلها على حين قطن اخوانهم الآلان اقليم لوزيتانيا (البرتغال الآن) • ولم يكن أولئك وهؤلاء أفضل من اخوانهم ، اذ فاقوهم فى البطش والاغارة على ما حولهم من طوائف خصوصا فى جنوبى غالة وحوض نهر الرون •

وما كاد كل فريق يستقر فى موطنه الجديد حتى فاجأ الجميع قبائل أشد منهم قوة ، تلك هى قبائل القوط الغربيين الذين سبق ذكرهم والذين منحتهم الدولة جنوبى غالة ، فقد زحفوا بقيادة زعيمهم «أطاوولف» فأعلنوا عليهم الحرب وكان النصر حليفهم فيها • فارتد الآلان الى جهة الساحل الشمالى المطل على خليج بسكاى فى المحيط ، وهرب السويف الى الركن الشمالى الغربى من البلاد •

أما بقية اخوانهم من الوندال فقد حاولوا الصمود أمام أطاوولف ، ولكنهم لم يستطيعوا فتراجعوا نحو أماكنهم الاولى فى الجنوب •

وفى عام ٤٢٥ للميلاد استولى زعيمهم « جندريك » على مدينتى قرطاجنة (الاسبانية) واشبيلية وبذلك أصبح ساحل اسبانيا الجنوبى خاضعا للوندال •

ومات جندريك وقام بالامر بعده أخوه « جنصريك » ، فأخذ يعمل لتحقيق أمنية أخيه فى التوسع والسلطان وفى هذا الوقت اضطرب الامر فى المغرب من جراء عدم اعتراف الامبراطورية البيزنطية بالامبراطور فالنتيان خلفا للامبراطور الرومانى «أونوريوس» المتوفى فى روما عام ٤٢٣ م وقيام الكونت بونيفاس حاكم المغرب بمقاومة ذلك ، ثم ما وقع بين هذا وبين «بلاسيديا» صاحبة النفوذ الاكبر فى روما وأخت الامبراطور الراحل من عداء نتيجة زواجه بفتاة لا تعتنق الكاثوليكية ، وكان أن أعلن الحرب على الجيوش الرومانية المقيمة بالمغرب وانتصر عليها فى سنة ٤٢٧ م •

ولما وجد بونيفاس أن القوط الغربيين يغيرون على مدينة قرطاجنة (المغربية) استنجد بالوندال • ولم يشأ جنصريك أن يترك هذه الفرصة تفلت من يده فقام على الفود من مدينة « خوليا ترادا وكتا » (طريف) • وعبر زقاق جبل كالبى (جبل طارق بعد ذلك) ونزل فى طنجة بجيوشه الجرارة ، ومن هناك انطلق الونداليون الى ولاية نوميديا وكانوا فى زحفهم يدمرون وينهبون كل شىء كعادتهم مما جعل بونيفاس يحرق الارم غيظا وندما على استنجاده بهؤلاء القساة ، واضطر أمام أطماعهم ووحشيتهم أن

يطلب الصلـــح مع روما ، فأرسلت له «بلاسيديا» حملة قسـوية ، ولكنه لم يستطع الصمود أمام الدفع الوندالى فهرب الى مدينة عنابة ، فحاصره جنصريك مدة أربعة عشر شـــهرا ولكن بدون جدوى ، فترك جنصريك المدينة وانطلق برجاله نحو مدينتي قسنطينة وقرطاجنة • وفي ذلك الوقت وصلت نجدة من الامبراطورية البيزنطية بقيادة استار لمساعدة بونيفاس، وتقابلت قوات الامبراطوريتين بقوات جنصريك فى عـــام ٤٣١ م ودارت بينهما رحى الحرب ، وأخيرا انتهت بانتصار الوندال وفرار بونيفاس الى روما ،وهروب أستار الى القسطنطينية (عاصمة بيزنطة).

رأى جنصريك بعد أن فقد الكثير من رجاله فى هذا الصراع أن يهادن بيزنطة حتى يستعد ثانيا لجولاته المقبلة ، فعقد معها معاهدة فى ١١ من فبراير سنة ٤٣٥ م يدفع بموجبها الجزية للقسطنطينية فى مقـــابل أن يحتل ولاية موريتانيا ، وجزءا من ولاية موقيديا •

ومر على ذلك أربع ســـنوات كان جنصريك قد عوض ما خسره من جيوش فتحركت فيه شهوة الحرب ، فأقدم على نقض المعـــاهدة المذكورة وانطلق فى صباح ٩ من اكتوبر سنة ٤٣٩ م نحو قرطاجنة فاحتلهـــا ، واتخذها عاصمة لملكه •

ثم بدأ يعمـــل على انتزاع ما تحت يد روما من جزر ومدن ، وفى سبيل ذلك أنشأ أسطولا بحريا احتل به جزر البليار (منورقة ـ ميورقة ـ يابسة) فى البحر الابيض المتوسط ، ثم آغار على صقلية وكورسيكا .

وأمام ذلك هبت روما تجيش الجيوش لوقف جنصريك ، وكان هذا فى ذلك الوقت يستعد لغزو روما نفسها وقد ساعده الحظ بوقوع الفتنة التى قامت فى روما عقب مقتل الامبراطور فالنتيان والتى ألهت الرومان عن الزحف لملاقاة الوندال ، فانتهز جنصريك هذه الفرصة وأرسل جيوشه ، فنزلت على شواطىء ايطاليا الجنوبية وفى زحف خاطف دخلت روما فى الثانى من شهر يونية عام ٤٥٥ م ، ثم عادت الى قرطاجنة محملة بنفيس الغنائم وسبعين ألفا من أسرى الطليان ، منهم زوجة الامبراطور المقتول بلاسيديا التى سبق ذكرها •

ولما بلغ مسامع الامبراطور البيزنطى فى القسطنطينية عمل فورا على وقف جنصريك وأرسل حملة جبارة على متن ستمائة سفينة ، ووصلت هذه الحملة الى شواطىء المغرب فى خلال عام ٤٦٨ م • واندلعت نيران الحرب بين الطرفين وفى خلالها ظهر للروم أن كفتهم غير راجحة ، فاتفقوا

مع جنصريك على الانسحاب من المغرب على شرط أن يعترف لهم بالسيادة وقد كان لهم ما أرادوا ٠

وفى سنة ٤٧٦ م كانت الدولة الرومانية الغربية فى النزع الاخير ، فانتهز القائد الثائر « ادوكر » هـــذا الموقف ، وأعلن سقوط الامبراطور « روميولوس أغسطس » وقيل : انه هو الذى نزل عن العرش ، فأرسل مجلس شيوخ روما الى قيصر بيزنطة «الامبراطور زينون» يخبره بأن الدولة الغربية تتقدم اليه بالطاعة لتكون تحت حمايته والتمس تعيين ادوكر حاكما على ايطاليا ، وقد وافق زينون على ذلك وأقر رغبة روما فى سبتمبر من العام نفسه ٠

كانت هذه الاحداث من أكبر العـــوامل التى حفزت جنصريك على توسيع رقعة سلطانه فى المغرب وأطلقت يده فى انشاء امبراطورية واسعة أخذ ينفرغ لتنظيمها ، وكان كحكام زمانه مستبدا قاسيا ٠

ولما مات فى يناير سنة ٤٧٧ تـــولى ابنه « هوينريك » الامر وكان جاهلا بشئون الحكم متعصبا للديانة الاريوسية وهى تخالف الكاثوليكية ، ولم يلبث أن توفى وقام من بعده اثنان تعاقب كل منهما على العرش منذ عام ٤٨٤ الى عام ٥٢٣ م ، وفى عهد الثانى « تراساموند » كان الوندال قد غرقوا الى آذانهم فى المجون والترف ، ونسوا فى ســـبيل البحث عن الشهوات صفاتهم الحربية التى أخضعت أقوى أمم الارض فى ذلك الزمان، وما لبثوا أن ضعفت عزائمهم وفترت حماستهم الحربية مما جعل قبضتهم على حكم المغرب تضعف شيئا فشيئا ٠ فشجع ذلك بعض جمـــاعات من أحرار البربر بزعامة (جابون) بالتكتل لطردهم ، فتصدى لهم تراساموند، ولكنه انهزم أمامهم ثم مات غيظا وكمدا ٠

وتولى بعـــده « هيلدريك » الذى نشأ فى القسطنطينية وكان أول ما أقدم عليه أن أعلن تبعيته لبيزنطة لحمايته ، فأنكر عليه جيشـــه هذا الخضوع ونادى قائده بسقوطه فى مايو سنة ٥٣٠ م ٠

ولما وصلت هذه الاخبار الى القيصر البيزنطى جستنيان الاول (٥٢٧ الى٥٦٥م) أرسل يهدد جليمار فرد عليه هذا ردا يتسم بالوقاحة أثار حفيظته مما جعله يرسل جيشا كبيرا بقيادة «بليزاريوس» لتأديبه وانقاذ المغرب من العقيدة الاريوسية واعادة الكاثوليكية الى مثل ما كانت عليه من قبل ٠

ونزل الجيش على الشاطىء بين مدينتى سفاقس وسوسة وهرعت اليه جموع كثـــيرة من البربر فانضمت الى بليزاريوس نكاية فى جاليمار لاخماد ثروتهم والعمل على اذلالهم ٠

وانطلق القائد البيزنطى بحشوده الكثيرة نحـــو قرطاجنة ٠ وأمام أسوارها التحم مع الوندال فى قتال مرير انتهى بهزيمة الونداليين هزيمة مروعة وفرار جاليمار واحتل المنتصرون المدينة ، وبذلك أصبح المغرب كله خاضعا للدولة الرومانية الشرقية « البيزنطية » ٠

الفصل الخامس

المغرب فى ظل الرومان الشرقيين

ما كاد الامر يستقر للبيزنطيين فى المغرب حتى شرع الامبراطور جستنيان فى تطبيق نظم امبراطوريته عليه ، وهى فى مجموعها لا تتفق مع طبيعة أهل المغرب ، ثم عين عليه حاكما عاما وأمر بتقسيمه الى عدة ولايات ليضمن عدم تكتل الثائرين ويسهل على الحاكم ادارة شئونه ؛ وكان التقسيم على الوجه الآتى :

١ ـ المنطقة الشمالية وتشمل الجزء الشمالى من المغرب الادنى « تونس » ومركزها قرطاجنة ٠

٢ ـ المنطقة الجنوبية وتشمل بلاد الجزء الجنوبى من المغرب الادنى ومركزها تبيسا ٠

٣ ـ طرابلس

٤ ـ نوميديا وتشمل اقليم قسنطينة وما يليه من الشرق ٠

٥ ـ موريتانيا الشرقية ومركزها مدينة سطيف بالجزائر ٠

٦ ـ موريتانيا الغربية أو الطبنجية ومركزها مدينة شرشال ٠

وسار المغرب فى ظل هذا النظام ، وكان هم حكام هذه الولايات جمع المال بأية وسيلة ونهب أرزاق الشعب بحجة تعويض الدولة عما أنفقته من أموال فى حربها مع الوندال ٠ وقد أدى ذلك الى تدهور الحالة الاقتصادية:

فالزارعون هجروا الارض هربا من الضرائب المفروضة عليهم ٠

والتجار أغلقوا متاجرهم لقلة السلع وخوفا من النهب ٠

وتبعا لذلك شاعت الفوضى فى أنحاء المغرب ، وقام أهله فى محاولات كثيرة بالثورة ضد المحتلين وأمكنهم فى بعض المحاولات أن ينتزعوا من أيديهم بعض المدن حتى أصبح النفوذ البيزنطى فى المغرب الاقصى لايشمل سوى مدينتى سبتة وطنجة وجزء صغير على الساحل بعد أن كان يمتد الى جوف البلاد ٠

وبمرور الزمن ساد القصر الحاكم فى قرطاجنة الاضطراب لسياسة العسف التى اتبعها بعض حكام الولايات ضد الشعب ، مما أدى الى ظهور

طبقة طامعة فى منصب الحاكم العام ، وتحقيقا لأهدافها استمالت نحوها نفرا من قادة البربر الانتهازيين وظلت بمعاونتهم تتصارع على انتزاع السلطة .

وانتهز الشعب هذه الفرصة فقام بثورة جامحة عمت أنحاء المغرب . وحاول أحد الحكام تهدئة الثورة ولكن سرعان ما صرعته الثورة فى سنة ٥٤٤ م وظلت البلاد بعدها حوالى عامين بدون حاكم .

وحاول جستنيان أن يعيد الامن الى المغرب فعين عليه القائد « روجاتينوس » وكان سياسيا قديرا أمكنه أن يهدىء الحالة ويجذب حوله الثائرين حتى ساد السلام المغرب ما يقرب من خمس عشرة سنة ، ولكن خلال هذه المدة قام البربر بمحاولة جريئة بزعامة أحد رجالهم الشجعان « كوتزيناس » للتخلص من المستعمرين فكان الفشل حليفهم وقام روجاتينوس باعدام الزعيم الثائر فى منتصف عام ٥٦٣ م . وقد هز خبر اعدامه أهل المغرب فهبوا بالثورة وأشاعوا الخراب فى كل المرافق .

ومات جستنيان وتولى العرش الامبراطور « موزيق » فأرسل القائد هرقل الى المغرب لتهدئة الحالة . وما كاد هرقل يفرغ من الثوار حتى فوجىء بخبر مقتل مولاه (موزيق) وقيام الامبراطور «فوكاس» بدلا عنه ، فعز عليه ذلك وبعث هرقل ابنه بجيش كثيف الى القسطنطينية لاسقاط فوكاس ، وقد نجح فى ذلك واعتلى هرقل الابن العرش فى ٥ من اكتوبر سنة ٦١٠ م (١) .

وفى أثناء ذلك كانت الدولة الفارسية من القوة بما جعلها تقدم على الاستيلاء على بعض الاقاليم البيزنطية ، فاحتلت مصر فى عام ٦١٩م وأوشكت أن تغزو المغرب ، وأمام ذلك هبت بيزنطة كتلة واحدة تحارب الفرس وانتزعت من أيديهم مصر ثانيا بعد عشر سنوات .

ثم تبع ذلك صراع طائفى بين الامبراطور والقساوسة اندلعت بسببه الثورة فى المغرب .

ثم مات هرقل وخلفه « قسطنطين الثالث » فكثرت الانقسامات المذهبية عن ذى قبل ، وشاعت الفوضى فى المغرب .

وفى غمرة تلك الاحداث بدأ العرب يفكرون فى غزو المغرب ورفع الراية العربية فوق ربوعه .

---

(١) هو الذى كان معاصرا للنبى عليه الصلاة والسلام .

القسم الثالث

الفتوح العربية للمغرب

الفصل الاول

فتوح عمرو بن العاص

لم يفتح المسلمون المغرب الا بعد حرب ضروس دامت حوالى سبعين عاما لقوا فيها من الشدائد والصعاب والخسائر ما لم يلقوه فى فتح أى أقليم آخر ، وقد بدىء فتحه فى ذى القعدة سنة ٢٠ هجرية (سبتمبر عام ٦٤٢ ميلادية) فى زمن عمرو بن العاص وانتهى فى سنة ٨٦ هجرية (٧٠٦م) على يد حسان بن النعمان ، ثم من بعده موسى ابن نصير الذى وصل بفتوحه له حتى نهر درعة ، وكانت هذه أول مرة فى التاريخ يصل فيها فاتح الى هذه المناطق النائية من بلاد افريقية .

واذا قلنا ان العرب قد تحملوا خسائر فادحة فى فتح المغرب فان هذه الخسائر أقل بكثير من الخسائر التى خسرها الرومان فى العصر القديم وخسرها الفرنسيون فى العصر الحديث عند فتحهم المغرب ، هذا وتعتبر النتيجة التى وصل اليها المسلمون فى فتحه من النتائج الحربية الرائعة وقد علق أحد مؤرخى الفرنسيين «جوتييه» على ذلك بقوله : ما زالت النتائج التى وصل اليها العرب فى فتحهم الشمال الافريقى تدهشنا الى الآن ، لقد عرب المغرب الى حد كبير وتحول الى الاسلام تحولا تاما عميقا ، وهذه نتيجة تدعو الى الاعجاب ما فى ذلك شك ولم توفق الى مثل هذه النتيجة حركة استعمارية أخرى قامت على وجه الارض . ولنكرر القول : ان هذا الفتح أحدث خلال القرن السابع (الميلادى) ثورة كبيرة .

فلقد انهار الحاجز المغلق اغلاقا محكما من كل ناحية والذى كان يفصل الشرق عن الغرب . فاذا دفعنا تطلعنا الى فهم الاسلوب الذى تمت به هذه الثورة الكبرى والى الاحاطة بتفاصيلها استبنا أن الفتح العربى كان طويلا جدا وعنيفا جدا . »

وهذه شهادة احد أعلام المؤرخين الغربيين عن ضخامة العمل الثورى الذى قام به العرب ومدوا خلاله رقعة الاسلام بضعة آلاف من الأميال . من الاسكندرية الى شاطىء المحيط الاطلسى وأعادوا المغرب الى حظيرة الوحدة العربية الاسلامية .

ومما يلاحظ أن المؤرخ المذكور وصف الفتح للمغرب كحركة استعمارية والثابت أن العرب لم يهدفوا الى غزو المغرب ليستعمروه

الاستعمار المعروف بمعناه الصحيح فى هذا العصر ، بل كان هدفهم هو نشر الدين الاسلامى الذى اختاره الله للناس كافة ، فهم بذلك كانوا أصحاب رسالة سامية وطنوا انفسهم على نشرها فى مختلف أركان الارض وخصوصا الارض العربية الممتدة من الخليج الى المحيط . فلما فرغوا من نشرها فى نصفها الاول فى الشرق والجنوب على ساحل المحيط الهندى . ثم فى الشمال حتى حدود العراق وقضوا على الفرس والروم زحفوا الى مصر . وكان النصر حليفهم ، ثم كان عليهم بعد ذلك أن يمدوا أبصارهم نحو النصف الآخر من ارض العروبة الذى يبدأ من الاسكندرية حتى المحيط الاطلسى لانتزاعه من فلول الروم الذين انهزموا تحت ضرباتهم فى ميادين العراق ومصر . وقد وفقهم الله فيما سعوا من أجله كما هو مبين بعد ونشروا دين الله ، وقضوا على تلك الفواصل التى فرقت بينهم وبين بنى عمومتهم والتى اصطنعها المستعمرون الاجانب الذين تعاقبوا على حكم المغرب الواحد بعد الآخر فى مختلف العصور والدهور .

ومعروف ان المسلمين لم يتصوروا اتساع المغرب الشاسع واختلاف شعوبه حينما أقبلوا على فتحه وأنهم فتحوه بلدا بلدا وحصنا حصنا كل حصن يؤدى بهم الى الحصن الذى يليه حتى وصلوا الى طنجة على شاطىء الاطلسى .

وكان أول من فكر فى فتحه ونشر رسالة الاسلام بين ربوعه هو عمرو بن العاص ، وذلك عندما كان يحاصر الروم فى الاسكندرية فى سنة ٢٢ هجرية (٦٤٢م) فقد رأى بعد أن فرغ من الاستيلاء على المدينة أن يواصل سيره نحو الغرب لغزو المنطقة التى بين الاسكندرية وطرابلس حتى يؤمن خطوطه الخلفية ويقضى على الحاميات الرومية المعسكرة فى تلك المنطقة ولذلك بعث أحد قواده الشبان « عقبة بن نافع » على راس فرقة استطلاعية لاكتشاف المنطقة ومدى مبلغ تحصينها وقوة حماتها .

وانطلق عقبة برجاله ولم يصادف فى طريقه الا محاربين قد أنهك قوتهم الانقسام المذهبى واخذ منهم الخوف كل مأخذ فاستطاع أن يصل الى برقة دون صعاب ، ثم لحق به القائد الفاتح عمرو بن العاص ، وصالح أهل برقة على الجزية ، وقد لقى المسلمون ترحيبا كبيرا من السكان الذين مروا بهم فتسابقوا فى الدخول الى طاعتهم واعتناق دينهم الاشتراكى العظيم ، وقد ابدوا لاخوانهم المسلمين من الاخلاص ما جعلهم

يبعثون بالجزية اليهم دون أن ينظـروا قدوم عامل الخـراج « موظف الضرائب » لتحصيلها منهم .

ولم يكد عمرو بن العاص ينتهى من أمر برقة حتى تابع زحفه نحو طرابلس فاستعصت عليه فى أول الامر ، فحاصرها وكانت مكشـوفة الـسور من جهة البحر ، فلما جاء الجزر وانحسر الماء عن الشاطىء اقتحم العرب الطريق بين البحر والمدينة ، ثم اندفعوا نحو البلدة فامتلـكوها بعد شهر من حصارها وفر حراسها الرومان على متن سفنهم خوفا من سيف المهاجمين .

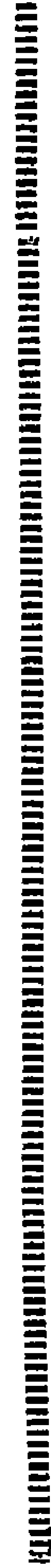
ثم تابع عمرو زحفه الكاسح الى مدينة صبرة « سبرت » وقـد داهمها بخيله فى مطلع الفجر فى الوقت الذى خرجت فيه حاميتها واهلها للسقى والرعى . فسلموا له كارهين .

ورأى عمرو بعد ذلك أن فتح البلاد التى على الساحل لا يضمن خضوع المدن الا اذا قضى على الاماكن الداخلية وأخضع سكانها القاطنين فى الصحراء ، ولذلك بعث « عقبة بن نافع » بفرقة من الجيش الى داخل البلاد للاستيلاء على بلدة فزان • وأرسل يسر بن أبى أرطأة لفتح مدينة ودان ، ونجح عقبة فى اخضاع زويلة وفزان كما وفق زميله فى فتح ودان وغدامس .

ثم بدا لعمرو أن يزحف نحو المدن التى غرب مدينة صبرة وخاصة مدينتى قابس وجرجس ، ولكنه وجد صعوبة فى ذلك لقلة ما معه من الرجال ، فبعث الى الخليفة عمر بن الخطاب يطلب منه مددا ويستأذنه فى فتح افريقية(تونس) «وانه ليس أمامنا بعدأن بلغنا طرابلس الا تونس وملوكها كثيرون وأهلهـا فى عـدد عظيم واكثر ركوبهم الخيل ، وان بيننا وبينها تسعة أيام ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا فى غزوها فعل . »

ولكن الخليفة خاف نتيجة اندفاع المسلمين فى تلك الارض البعيدة المجهولة له فبعث لعمرو بن العاص يأمره بالعودة الى مصر .

فانصاع الفاتح العظيم للأمر وعاد الى مصر كارها بعد أن استخلف على طرابلس وما يليها القائد الشاب عقبة بن نافع . وبهذا انتهى دور عمرو بن العاص فى فتح المغرب .



الفصل الثانى

فتوح عبد الله بن أبى سرح

ومات الخليفة عمر بن الخطاب وتولى الخلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه فعزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وعين بدلا عنه عبد الله بن سعد بن أبى سرح (أخاه فى الرضاعة) .

وانتهز الرومان تلك الفرصة واشتغال المسلمين بأمور الحكم فقام جريجوريوس او جرجير كما سماه العرب حاكم افريقية بحملة عنيفة على طرابلس فانتزعها من عقبة ومضى على ذلك أربع سنوات ، فرأى عبد الله بن أبى سرح ألا يترك الحاميـة الاسـلامية فى تلك البلاد تحت رحمة الرومان ، فعزم على نجدتها واسترداد طرابلس ثم الزحف الى تونس . وبعث يستأذن الخليفة عثمان ، ولكن الخليفة كان يعلم أن سلفه عمر بن الخطاب قد نهى عمرو بن العاص عن الاستمرار فى الغزو فكتب الى عبد الله بالرفض قائلا :

« ما أرى فى فتحها خيرا وقد كرهها عمر من قبلى . »

فاكتفى عبد الله بارسال بعض الفرق الفدائية للاغارة على أطراف المغرب لشد أزر قوات عقبة وجلب الغنائم التى كانت من الكثرة والغنى مما جعل الخليفة عثمان يفكر ثانيا فى الاستجابة لرجاء ابن أبى سرح ومواصلة الفتح ، ورأى الا يقطع بأمر الا بعد مشاورة الصحابة ، ولكنهم جميعا ومنهم على بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص ترددوا فى الموافقة على طلبه وطالبوه بالسير على سنة عمر .

وفى رواية أخرى أنهم أيدوه على الغزو ، وقام عثمان رضى الله عنه فى المسجد يدعو المسلمين للجهاد ، وكان أول الملبين بعض الصحابة وأولادهم ، فلما نظر الناس الى وجوه الصحابة وأبنائهم قد اجتمعوا أقبلوا على الجهاد طائعين ، فلما اكتملوا عرضهم عثمان ، واذا هم أربعة آلاف فارس وثمانمائة رجل من أخلاط القبائل ، فتجهزوا بما أمكنهم وأعانهم عثمان بألف بعير بأقتابها ، وفتح خزانة السلاح وفرقها عليهم وعلى قوادهم « ثم أمر عليهم مروان بن الحكم وقيل : عثمان بن الحارث بن الحكم . وقام الخليفة فيهم خطيبا فقال :

أيها الناس انكم أصبحتم بدار لا يصلح فيها التضجيع والتوانى ، وقد رأيتم عمـر بن الخطاب وما فتح الله على يديه من الشـام ومن

بلاد الاعجام وارض مصر وكان أهل هذه البلاد اشد قوة وأكثر عددا واحسن سلاحا واغزر مالا . وفتحها الله على عباده بتقوى الله الذى يبقى ويفنى ما سواه وانا أرجو الله أن يفتح عليكم ويظفركم بها ويعينكم عليها ويفتحها الله عليكم بمنه وكرمه .

ولقد كتبت الى عاملى بمصر عبد الله بن سعد وعهدت اليه أن يحسن صحبتكم وأن يرفق بكم وأن يكون عند عهدى وأمرى ان شاء الله ولا قوة الا بالله العلى العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل ، فسيروا رحمكم الله والله خليفتى عليكم .

وغادر هذا الجيش المدينة مسرعا متجها الى مصر ، وسرعان ما التقى بجيش النيل فى خلال العام السادس والعشرين من الهجرة (٦٤٦ م) ، وزحف الاثنان بقيادة ابن أبى سرح الى الاسكندرية ومنها الى برقة ، فوصلوها فى أوائل العام التالى وكان فى استقبالهم عقبة بن نافع فسار معهم نحو طرابلس فاستردوها ، ثم تركوها زاحفين الى تونس ، وتحت أسوارها قابلهم جرجير بجيش عدته مائة وعشرون ألف مقاتل ، وبينما الاثنان يستعدان للمعركة الفاصلة اذ وصل لابن أبى سرح عدد من المسلمين بعث به الخليفة وعلى رأسه عبد الله بن الزبير فاشتد ساعد العرب وباتوا وهم على ثقة من النصر على عدوهم الرومى .

واشرق صباح يوم الطعن فى موضع بالقرب من مدينة سبيطلة وذلك فى أوائل العام الثامن والعشرين الهجرى . فاذا جرجير ينادى فى جنده : « من قتل ابن ابى سرح فله مائة ألف دينار وازوجه ابنتى ! »

ولكن سرعان ما جاء الرد من معسكر المسلمين بايعاز من ابن الزبير « من قتل جرجير فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنة جرجير وأستعمله على بلاده ! »

ثم قسم ابن أبى سرح الجيش واختار من بعض الصحابة ومشاهير الفرسان فرقة تكمن خلف الجيش حتى اذا اشتبكت السواعد وطال الصراع ووجفت القلوب خرج هؤلاء من مكمنهم يضربون أقفية الاعداء ويروعونهم بنداءاتهم المثيرة « الله اكبر ، الله أكبر » .

ودار القتال ونفذت الخطة فما لبث الروم الذين ظنوا أن قلوب المسلمين قد وهنت أن رأوا هجوما عنيفا قد أقبل من خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ينقض عليهم كالصواعق ، فوقع الاضطراب فى صفوفهم وفى لمحة خاطفة أبصر ابن الزبير جرجير ، فاندفع نحوه مكبرا

وفى عزمة المؤمن رفع سيفه وهوى به على عاتقه . ففصل رأسه عن جسده . فكانت له المكافأة وابنة المقتول ! .

وأما ولاية الاقليم فقد نزل عنها لسفره الى الخليفة ليبشره بالفتح المبين .

ودان النصر للعرب وكانت الغنائم من الكثرة ما جعل نصيب كل فارس ثلاثة آلاف دينار والراجل ألفا وبلغ الخمس الذى حمله معه الرسول للخليفة نصف مليون دينار كما يقولون .

ولما رأى الروم ومن والاهم من البربر أن لا طاقة لهم بجيش المسلمين بعثوا يطلبون الصلح وعرضوا على ابن ابى سرح ان يترك لهم البلاد فى نظير مال من الذهب ، وفى رواية أخرى مائة قنطار ، فوافقوا صاغرين وقدموا له المال المطلوب ، وأجابهم على طلبهم فى تعيين حاكم عليهم من قبلهم .

وبينما عبد الله يستريح من عناء القتال استعدادا لزحوفه القادمة اذ قرر فجأة العودة الى مصر . ويرجع سبب ذلك — فى رواية فجر الاندلس — الى تجميع شتات الروم بافريقية وتكوينهم مراكز لمقاومة ابن أبى سرح ، ثم قلة عدد جنوده قياسا الى كثرة جيوش الروم والبربر ، وسبب آخر هو أن ابن ابى سرح قد طالت غيبته عن عاصمة ولايته مصر ورغبته فى العودة اليها للنظر فى أمورها ، كل هذا يفسر لنا السبب فى قبوله الصلح مع الروم .

وهكذا غادر عبد الله المغرب دون أن يترك وراءه أية حامية عربية تحافظ على ما كسبه المسلمون كما فعل عمرو بن العاص من قبل عندما ترك عقبة بن نافع على برقة ، بل اصطحب هو عقبة معه الذى ظل مقيما فى هذه النواحى يدعو الى الاسلام حتى كسب آلافا من البربر دخلوا فى دين الوحدانية راضين ، ولو أن عبد الله ترك عقبة خلفه لكان لانتصار سبيطلة نتائج بعيدة المدى ، ولكن انسحابه هكذا بجميع المسلمين قضى على معظم النتائج التى كان العرب قد وصلوا اليها فى فتح المغرب .

غير أنه مما لا شك فيه أن ما قام به ابن أبى سرح كان له شأن كبير اذ أن انتصاراته فى سبيطلة مرغت أنوف الروم فى التراب ، وقضت على الكثير من هيبتهم العسكرية ، وأدخلت فى قلوبهم الرعب من قوة المسلمين ، وكان ذلك من أهم العوامل التى مهدت الطريق لمن جاء بعده من القواد الفاتحين .



الفصل الثالث

غزوات معاوية بن حديج التجيبي

مر على تلك الاحداث ثلاث عشرة سنة من سنة ٢٨ هجرية الى سنة ٤١ هجرية لم يقم المسلمون فى خلالها بغزوة للمغرب لشغلهم بمقتل الخليفة عثمان واندلاع الفتنة الكبرى عقب موته مما هو معروف ، فلما انتهى الامر لمعاوية بن أبى سفيان عزم على استئناف فتح المغرب واسترداد المدن التى استردها الرومان فى اثناء الفتنة . وكان أن اعاد عمرو بن العاص على ولاية مصر ثانيا سنة ٣٨ هـ (٦٤٨ م) فاستأنف عمرو فتوحه للمغرب ، ولكن شيخوخته وكثرة المشاكل التى واجهته فى اثناء قدومه الى مصر حالت بينه وبين قيادة الجيوش فاكتفى بارسال فرق من الفدائيين للاغارة والاستحواذ على الغنائم ، وبعث على رأس هؤلاء عقبة بن نافع فأمكنه أن يسترد بلدة غدامس فى سنة ٤٢ هـ . ثم توغل فى الصحراء التى تفصل تونس عن السودان فأخضع بعض القبائل ، وغنم غنائم تفوق الوصف عاد بعدها للاقامة ببرقة . ولم يلبث عمرو بن العاص أن توفى فى سنة ٤٤ هجرية .

ولما علم معاوية بن أبى سفيان بوفاة عمرو كان أول ما أقدم عليه فصل ولاية افريقية عن مصر ليكون للخليفة حق تعيين واليها من قبله لانه لم يكن راضيا عن هذه السلطات الواسعة التى منحت حاكم مصر الحق المطلق فى تعيين وال لافريقية وعزله . ومنذ ذلك الوقت أصبح المغرب ولاية مستقلة شأنها كشأن مصر ، وكان أول وال عينه عليها ابن أبى سفيان هو « معاوية بن حديج التجيبى » أحد كبار أنصاره ومن الذين مارسوا الحرب من قبل فى ميادين المغرب ، ثم زوده بجيش بلغ عدده عشرة آلاف جندى من بينهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الملك بن مروان ، وأمره بالزحف فورا نحو المغرب .

وصل ابن حديج الى مصر فى سنة ٤٥ هـ (٦٦٦م) ولم يشأ أن يضيع الوقت سدى ، بل أسرع بالزحف نحو برقة ثم خلفها متجها الى مدينة قرطاجنة التى قيل له ان الاعداء قد تكتلوا فيها لمواجهته ، ولم يكد يحط رحاله فى سهل تونس فى مكان « قمونية » جنوب قرطاجنة حتى جاءه الخبر بأن الروم قد لبسوا عدة الحروب استعدادا للقتال ، فأسرع نحوهم ونشر مضاربه بالقرب من معسكرهم فى مكان يقال له « القرن » وبدأ المسلمون يبثون الذعر فى قلوب الروم بتكبيراتهم التى

كانت تصم الآذان ويتردد صداها فى جوف الصحراء فتثير فيهم الرعب مما حطم أعصابهم وجعلهم يفرون نحو بلدة سوسة عندما شاهدوا الفرقة الاستطلاعية التى بعث بها ابن حديج بقيادة عبد الملك بن الزبير ، ولكن سرعان ما لحقهم ابن الزبيرودارت بينه وبينهم معارك خفيفة أقلعوا بعدها الى جزيرة صقلية هاربين .

ودخل المسلمون مدينة سوسة مهللين مكبرين . ومن هناك بعث ابن حديج بلواء من الفرسان لاحتلال بلدة جاولاء فاستولى عليها بعد حصار وقتال سرعان ماتلاشى أمام عزيمة المهاجمين على حين سار ابن حديج بنفسه نحو «بنزرت» فأمكنه احتلالها .

بعد هذه الانتصارات والمكاسب رجع ابن حديج الى مكان القرن ليأخذ لجنده شيئا من راحة وحتى يوزع عليهم الفىء والغنائم ، ثم قام بحفر بعض الآبار لتوفير المياه اللازمة لجيشه وبعد أن فرغ من ذلك جاءه الخبر بتعيينه حاكما على مصر ، فانصرف عن أفريقية بغنائم كثيرة ورقيق وأصنام منظومة بالجوهر ، ووصل الى مصر فى عام ٤٧ هجرية بعد أن عين عقبة بن نافع خلفا له وأوصاه باستئناف الفتح واعلاء كلمة الله فى أرض المغرب .



الفصل الرابع

فتوح عقبة بن نافع الأولى

رأى عقبة بعـد أن سلم له ابن حديج مقاليـد افريقية أن يشرع فورا فى تنفيذ وصيته ، ولذلك جهز جيشه للغزو وانطلق به فى خلال عام ٤٩ هجرية (٦٦٩م) يدك معاقل البيزنطيين واستطاع استرداد فزان وغدامس ثم انتقل الى اقليم قمونية ليستعد للجـولة الثانيـة . وبينما هو آخذ فى الاستعداد وجد أنه من الاصوب أن يختط لنفسه خطة يسير عليها فى الغزو تمكن للمسلمين فى المغرب ولكيلا تكون غزواتهم بعد ذلك لمجرد جلب الغنائم والسبايا ثم العودة ثانيا الى مصر . بل لكى تكون هناك فتوح منظمة يستقرون بعدها فىالبلاد ، وبذلك يستطيعون أن ينشروا الاسلام على أوسع نطاق ، لانه كان رجلا شديد الايمان تميل نفسه لنشر الدين لا مجرد الفتوح والانتصارات وماوراء ذلك من مكاسب وغنائم ، ولذلك عزم على أن يتخذ له قاعدة ارتكاز فى قلب البلاد يخرج منها المسلمون بحملاتهم ويتخذونها عاصمة لهم ومركزا يمدهم دائما بالامدادات .

واختار عقبة لاقامة هذه القاعدة قطعة من السهل الفسيح من اقليم قمونية جنـوب قرطاجنـة وهى تبعد عن مدينة تونس الحاليـة بحوالى مائة واثنى عشر ميلا وجمع أركان حربه وأطلعهم على ما استقر رأيه عليه . ثم استطرد قائلا لهم : وأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة نجعل فيها عسكرا وتكون عزا للاسلام الى آخر الدهر . »

وكان اختيـار عقبـة لهـذا المكان اختيارا موفقـا من الناحيتين الجغرافية والاستراتيجية . فهو أولا بعيد عن الساحل لا يتعرض فيه المسلمون لتهديدات الاساطيل الرومية ، « وثانيا » يستطيعون منه مراقبة أعدائهم لأنه ملتقى للطرق المتجهة نحو الشرق والغرب والجنوب .

وبدأ عقبة فى بناء هذه المدينة التى عرفت فى التاريخ بمدينة القيروان فى عام ٤٩ هـ وانتهى من بنائها فى سنة ٥٢ هـ (٦٧٢ م) وكانت تضـم دار الامارة والمسـجد الجامع . وعلى مر الأيام عمرت بكثير من الدور والمساجد والمنشئات العسكرية واجتذبت المدينة عددا كبيرا من البربر فأعلنوا اسلامهم وكونوا جماعة اسـلامية بربرية ظلت تنمو وتكبر حتى أصبح افرادها ركنا حاسما فى تحويل المغرب الى الاسلام .

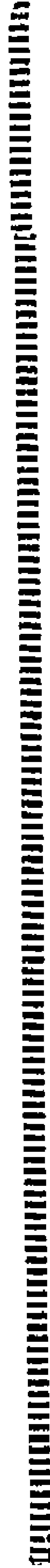
وكان عقبة فى اثناء قيامه ببناء القيروان لايفتأ يرسل الكتائب لاخضاع ما حوله من القبائل المتمردة . وكان نتيجة لذلك ان بدأ الاهالى يشعرون بقوة المسلمين فأعلنوا اسلامهم واخذوا ينتظمون فى جيوش المسلمين . وأصبحوا لهم عونا كبيرا فى اثناء تمام فتحهم للمغرب .

وما كاد عقبة يفرغ من تنظيم مدينته وتجهيز جيشه حتى قرر فى أواخر عام ٥٥ هجرية (٦٧٤م) الخروج الى الغزو الواسع الكبير ليدين المغرب كله للراية العربية الاسلامية ، وبينما يأخذ الأهبة لذلك اذ دخل عليه وهو فى المسجد الاعظم رسول من قبل الخليفة معاوية يبلغه عن خبر عزله عن الولاية وتعيين أبى المهاجر دينار خلفا له وهو من موالى مسلمة بن مخلد الانصارى حاكم مصر وقت ذاك نتيجة للوشايات التى أقدم عليها مسلمة الذى كان يكن لعقبة شيئا من الغيرة والذى كان يطمع فى ضم ولاية افريقية لسيطرته لكثرة خيراتها .

وخرج عقبة من افريقية بعد أن سلم مقاليد الولاية لأبى المهاجر الذى قيل انه أهان عقبة بايعاز من سيده مسلمة . فلما وصل عقبة الى دمشق شكا الى معاوية ما فعله معه خلفه وعاتبه على عزله قائلا له : « فتحت البلاد ودانت لى وبنيت المنازل واتخذت مسجدا للجماعة ، وسكنت الناس » ثم أرسلت عبد الانصارى فأساء عزلى ! ؟

وقد اعتذر له معاوية عن عزله ووعده برده الى عمله .

ولكن عقبة ظل مقيما بدمشق ينتظر أن يفى معاوية بوعده له ليرده ثانيا الى ولاية افريقية الى ان مات معاوية وخلفه ابنه يزيد ، فعزل هذا أبا المهاجر « دينارا » وأعاد عقبة على المغرب للمرة الثانية كما سنفصله فى حينه ..



الفصل الخامس

حملة أبي المهاجر دينار

ذكرنا أن مسلمة نجح فى عزل عقبة وتعيين مولاه أبى المهاجر خلفا له . وكان أبو المهاجر من دهاة السياسة وهو فى الوقت نفسه محب للغزو . فما كاد يطمئن على موقفه حتى عزم على الخروج الى الحرب ومهاجمة القبائل المتمردة فى مواطنها الحصينة ، ورأى أن يصانع قبائل البرانس المتحضرة الموالين للروم ليضمهم تحت لوائه أو على الاقل ليضمن عدم انحيازهم لأعدائه ، وقد نجح فى ذلك نجاحا كبيرا فدخل فى طاعة المسلمين زعيم هؤلاء القبائل « كسيلة بن لزم الاوربى » وأعلن اسلامه هو ورجاله ، وانطلقوا جميعا مع المسلمين لدك حصن الرومان حتى انتهى بهم المطاف فى مدينة تلمسان .

ثم عاد أبو المهاجر الى القيروان وقام بمحاصرة قرطاجنة وهاجمها هجوما شديدا فى عام ٥٩ هـ (٦٧٨ م) ولم يرجع عنها الا بعد أن نزل له الروم عن شبه جزيرة الشريك التى جنوب المدينة ، فاحتلها العرب ومنها بدءوا يشنون الحملات على قرطاجنة للقضاء على الروم نهائيا .

ودخلت سنة ٦٠ للهجرة وفى خلالها توفى الخليفة معاوية وظفر ابنه يزيد بالخلافة فكان أول ماعمله أن عزل أبا المهاجر دينارا وأعاد عقبة ابن نافع على الولاية للمرة الثانية .

الفصل السادس

فتوح عقبة بن نافع الثانية واستشهاده

عاد عقبة الى ارض المغرب وهو اشد تحمسا للفتح كمسا كان فى المرة الاولى . فما ان تسلم الزمام من خصمه أبى المهاجر دينار (١) حتى جمع جيشه وجهزه للغزو ثم اجتمع برؤساءالجنود وحضهم على الصبر فى القتال حتى تكون كلمة الله هى العليا وترفرف راية القومية فى أرجاء المغرب كله .

ثم انطلق بالمسلمين وبصحبتهم جمـوع بربر أورية «البرانس» وزعيمهم (كسيلة) بعد أن ترك على القيروان «زهير بن قيس البلوى» . ومضى فى طريق الزحف كالسهم المنطلق الى مرماه فى مضـاء وتصميم وقصد للهدف لايحيد عنه ولا يريم وغزا بهم مدينة باغاية . وانسـاب بعدها نحو الزاب فى المغرب الاوسط ، ويبدو أن عقبة قد أساء الىبعض قبائل البرانس الامر الذى أغضب زعيمهم كسيلة وكان نتيجة لذلك أن دب الخلاف بين عقبة وبين كسيلة فانسحب الاخير برجاله من صفوف المسلمين .

وسرعان ماانقلب عليهم وارتد عن الاسلام ، وانضم اليه جموع كثيرة من الروم وبدأ معهم يشنون على عقبة الغارات ويعترضون طريق زحفه .

ولكن عقبة تمكن من الانتصار عليهم وسار فى طريقه يغزو ويفتح الحصون حتى وصل الى بلدة (وليلى) وهناك اعترضه كسيلة ثانيا ، فظل يطارده ، وفى أثناء ذلك سقطت فى يده مدينتا (اغمـات وتيس) والأخيرة قرب دركالة ودخل فى طاعة المسلمين قبائل جزولة ومصمودة.

واخيرا انتهى به المطاف عند مدينة « ايفيران يطوف » على شاطىء المحيط الاطلسى . ثم قيل انه اندفع بفرسه نحو الماء حتى وصل المـاء الى ركابه ورفع سيفه وقال مخاطبا الله عز وجل :

« اللهم فاشهد انى لو كنت أعلم ان وراء هذا البحر أرضا لخضته غازيا فى سبيلك » .

---

(١) قيل ان عقبة قد أوثقه بالحديد كما فعـل هو معه واصطحبه معـه في غزواته وهو مقيده .

ثم التفت الى رجاله وقال :

« ارفعوا ايديكم ، ففعلوا ، واستأنف حديثه قائلا :

اللهم انى لم اخرج بطرا ولا اشرا ، وانك لتعلم انا نطلب الذى طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تعبد ولايشرك بك شيء . اللهم انا معاندون لدين الكفر ومدافعون عن دين الاسلام فكن لنا ولاتكن علينا ياذا الجلال والاكرام » .

ويطيب لنا أن نقف برهة عند هذه الكلمة التى ذكر فيها عقبة اسم ذى القرنين وهو الاسكندر الاكبر (١) والتى أشار فيها الى أن دعوة الاسلام تشبه رسالة الاسكندر ذلك لان الاسكندر أراد أن يجمع العالم فى أمة واحدة يسودها السلام ، اذ أن عقبة كان يفهم أن رسالة الاسلام لم تكن للاغارة والسلب ، وانما هى رسالة سامية تهدف الى عبادة الله دون سواه ، وعند ذلك يسود السلام بين الناس ، فلقد كان اختلاف العقائد ومازال سببا فى اختلاف العقول ، وكثيرا ماتطور هذا الخلاف فأشعل البغضاء وأوقد الحروب . وماذكر الحروب الصليبية عنا ببعيد .

وبقرب الشاطىء رأى عقبة أن ينصب معسكره ليأخذ لجنده قسطا من الراحة وحتى يعيد تنظيم صفوفهم استعدادا لغزو الجنوب .

وبينما هو مشغول فى ذلك اذ سرعان ماتوقف وامر الجيش بالعودة بسرعة نحو القيروان لأن اخبارا قد بلغته أن كسيلة وجموع الروم يستعدون لضربه من الخلف .

وعبر بالجيش وادى أم ربيع فى طريق عودته مخترقا أرض المغرب الاوسط ويبدو أنه أراد وهو فى طريقه أن يقضى على جيوب المقاومة التى اقامها كسيلة فى مختلف النواحى ، لذلك قسم الجيش قسمين : قسما ذهب جنوبا بشرق ، والقسم الآخر وكان عدده حوالى خمسة آلاف فارس اتجه هو بهم نحو مدينة «تهودة» لغزوها لتكون قاعدة ارتكاز للمسلمين فى منطقة جبال الاوراس .

---

(١) عند حضوره الى مصر زار معبد اله « آمون » بسيوة وكان هذا تمثله الفراعنة في بعض الاحيان على هيئة كبش بقرون ، فأعلن الاسكندر انه انحدر من صلبه فسمى « ذو القرنين » نسبة الى آمون ذوى القرون .

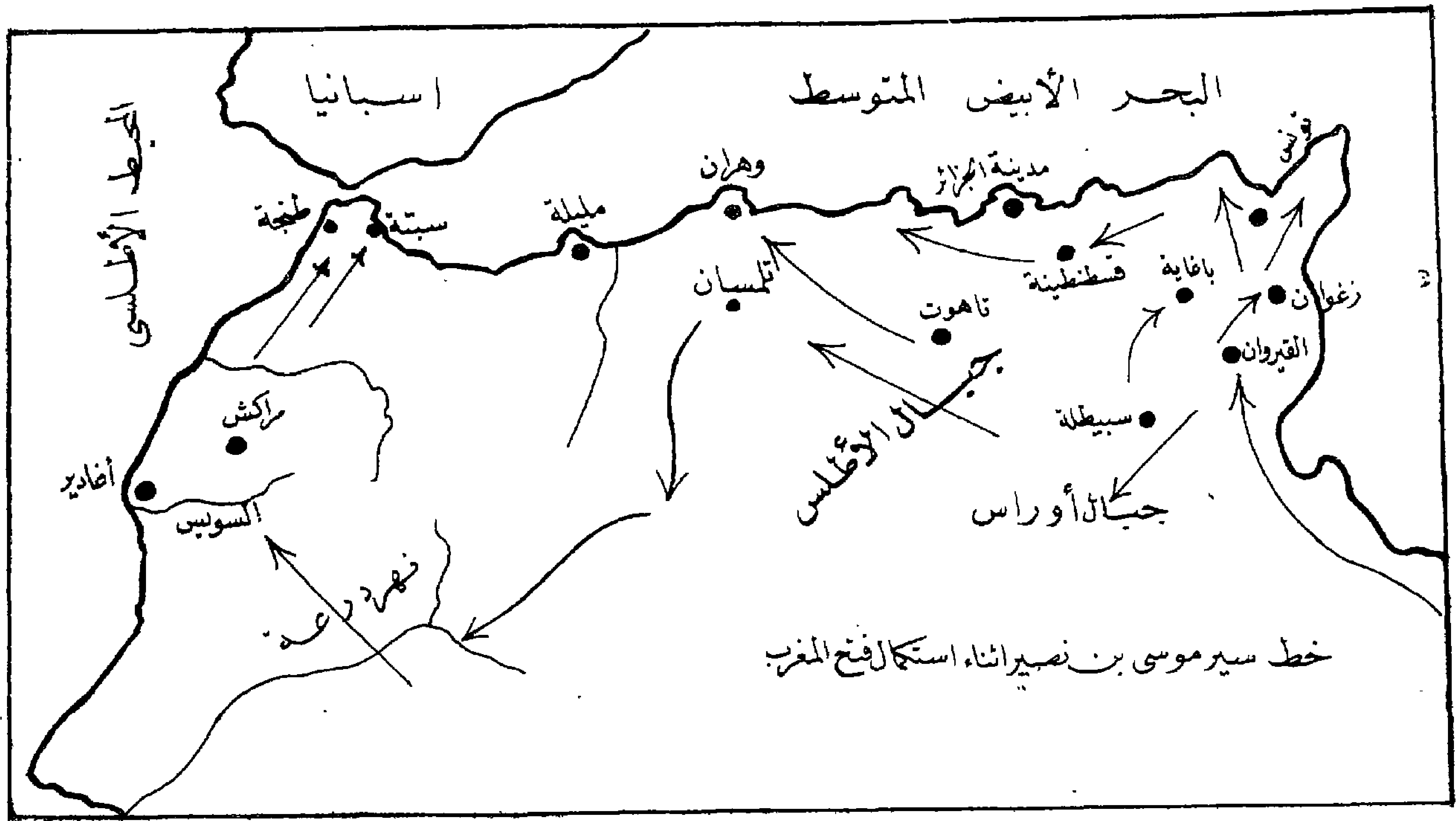
وبينما هو زاحف اليها فى خلال عام ٦٣ هجرية (٦٨٣ م) اعترض طريقه كسيلة بخمسين الف محارب ودارت بين الخصمين معركة غير متكافئة واظهر عقبة بطولة منقطعة النظير ، ولما أدرك أن الدائرة ستدور عليه لكثرة مالدى عدوه من الجنود بعث فى طلب ابى المهاجر دينار وأمر بفك وثاقه وقال له : «انطلق بالمسلمين وقم بأمرهم وانا اغتنم الشهادة».

وسمع ابو المهاجر امره ودعته نخوته العربية وحبه لنصرة الوحدانية ان يقاتل بجوار سجانه فى سبيل تحقيق الهدف ونشر العقيدة السمحة الكريمة ورد عليه قائلا : انا ايضا اريد الشهادة .

وانطلق البطلان شاهرين السيوف وظلا يقاتلان جنبا الى جنب حتى سقطا شهيدين وسيفاهما فى ايديهما .

ووقع خبر استشهاد عقبة فى القيروان وقوع الصواعق فقرر واليها فى الحال « زهير بن قيس » الانسحاب الى برقة قبل أن يزحف اليه كسيلة ويقضى عليه .

وخلا الميدان لكسيلة فاحتل القيروان ، وهكذا اسفر ذلك الحادث عن ضياع تلك الانتصارات الجبارة بعد صراع دام أكثر من اربعين عاما فى سبيل فتح المغرب ، ولكن بالرغم من ذلك فان المسلمين لم يفقدوا كل شىء . فانهم ــ وان كانوا قد خسروا سياسيا ــ قد كسبوا دينيا بما تركوه وراءهم من الآلاف المؤلفة من البربر الذين اعتنقوا الاسلام عن عقيدة راسخة . والذين لم يلبثوا أن ثاروا فى وجه كسيلة انتقاما لمقتل عقبة . وظلوا يناوئونه حتى دخل المسلمون ثانيا المغرب وساعدوهم ضده الى ان قتل ، وذلك فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان كما هو مفصل بعد .



خط سير موسى بن نصير اثناء استكمال فتح المغرب



الفصل السابع

حملة زهير بن قيس البلوى واستشهاده

مكث زهير مرابطا فى برقة بعد استشهاد عقبة حوالى ستة أعوام حتى سنة ٦٩ هـ (٦٨٨ م) . خلالها مات الخليفة مروان بن الحكم وقام بالامر بعده ابنه (عبد الملك) ، فظل زهير يستنجد به لامداده بالجنود لمعاودة الغزو على الرغم من انهماك عبد الملك فى اخماد الثورات التى قامت فى العراق والحجاز فقد عز عليه ضياع المغرب من أيدى المسلمين وقرر ارسال نجدة كبيرة لزهير لانتزاعه ثانيا من كسيلة والروم . وقال لصحابته : « لايصلح للطلب بدم عقبة من الروم والبربر الا زهير وهو مثله دينا وعقلا » .

فوافقوه على ذلك وأتبعوا موافقتهم قولهم : « انه صاحب عقبة واعلم الناس بسيرته وتدبيره وأولاهم بطلب دمه » .

ووصلت النجدة الى برقة وبدأت فى الزحف الى القيروان .
وفى موضع يقال له «ممس» بين القيروان وتبسا التقى زهيربكسيلة ودار الصراع بينهما وكثر القتل بين الفريقين وظلوا كذلك حتى اذا بدأت الشمس فى الغروب نصر الله عباده المؤمنين وانهزم كسيلة ولحقه بعض المسلمين فى أثناء هروبه فقتلوه شر قتلة هو ورؤساء جنده وأشراف الروم ، وعاد زهير برجاله المنتصرين الى القيروان محملا بالغنائم والاسرى ، وبذلك انكسرت شوكة أهل البرانس وقضى المسلمون على مقاومتهم وانتقموا لمقتل البطل الشهيد عقبة بن نافع .

وبعد هذا النصر قرر زهير العودة الى مصر . وماكاد يصل الى برقة حتى علم بغارات الروم عليها وسبى الكثير من أهلها ، فانطلق الى الساحل طمعا فى أن يدرك الروم قبل ابحارهم الى صقلية ويستخلص من أيديهم سبايا المسلمين وغنائمهم ، ودارت بينه وبين الروم معركة طاحنة انتهت باستشهاده رحمه الله . وهكذا اتضح للمسلمين أن الاستيلاء على المغرب كله لايتم الا بالقضاء على الروم أولا .

الفصل الثامن

غزوات حسان بن النعمان

مضى على استشهاد زهير نحوأربع سنوات توقف فيها غزوالمغرب لشغل عبد الملك بن مروان بكثرة الخارجين عليه وعلى رأسهم عبد الله ابن الزبير . فلما أعانه الله عليهم واتحدت الدولة الاسلامية على يديه كما سبق بيانه . عزم على استئناف فتح المغرب فتحا تاما ، ولذلك أعد جيشا ضخما بلغ تعداده كما يقولون أربعين ألف مقاتل وأمر عليهم القائد الشجاع « حسان بن النعمان الغسانى » وقال له : « اخرج الى بلاد افريقية على بركة الله وعونه » .

وخرج حسان بجيشه فى سنة ٧٤ هجرية الموافقة لسنة ٦٩٣ م قاصدا مدينة قرطاجنة مركز تجمع الروم وقاعدتهم البحرية الكبرى . وانضم اليه كثير من البربر الموالين للاسلام والمعتنقين له . فكانوا عدة له فدخل بهم مدينة القيروان دخول الفاتحين .

ولما أراح الجنود وجهزهم للزحف العام انطلق بهم الى قرطاجنة فحاصرها حصارا شديدا وقاتل الروم بعناد حتى نال منهم كل منال ، ومن نجا من القتل منهم ركب البحر هربا الى صقلية . ودخل حسان قرطاجنة فقتل وسبى أهلها . ثم أمر بتخريبها وتدميرها حتى لاتكون حصنا بعد ذلك فخربت عن آخرها .

وتم فى أعقاب ذلك غزو معقلين للروم على ساحل البحر الابيض وهما « بنزرت وسطفورة » . ثم مدينة باجة . وعاد حسان بعد ذلك الى القيروان ليتفرغ لتنظيم شئون البلاد التى فتحها . وماكاد يأخذ الأهبة لتنفيذ ذلك حتى واجه ثورة جامحة تزعمتها امرأة شديدة المراس هى الكاهنة « داهيا بنت ماتية بن تيفان » ملكة جبل اوراس . وقبيلتها تنتسب الى قبائل جراوة أشد قبائل البتر قسوة وجرأة وقد التف حولها ألوف من البربر بعد مقتل زعيمهم كسيلة ، وقد انتشرت حول هذه المرأة معجزات خرافية جعل الكثير من البربر ينضمون اليها ويأتمرون بأمرها وانطلقوا خلفها يعاودون حياتهم الهمجية الاولى فى السطو والنهب .

وأمام هذا رأى حسان أن يزحف الى مقر هذه المرأة لكسر شوكتها قبل أن يستفحل أمرها ، وقال له زعماء المسلمين من البربر :

« ان قتلتها لن تختلف عليك البربر . بعد ذلك » فسار اليها فلما بلغها زحفه قامت بهدم حصن باغاية ظنا منها انه يريد الاستيلاء على الحصون ولكن «حسانا» خيب ظنهاوانطلق اليها في مكمنها وبالقرب من موضع قسنطينة الحالية اقتتل معها في معركة حامية دارت الدائرة فيها على المسلمين . واسر جماعة كثيرة منهم (اطلقتهم الكاهنة بعد ذلك) « سوى خالد بن يزيد القيسى وكان شريفا شجاعا فاتخذته الكاهنة ولدا » .

وامام ذلك تراجع حسان الى الوراء سريعا حتى لايقطع عليه انصار المرأة خط الرجعة . ثم اخلى مدينة القيروان وانسحب الى برقة. وهكذا انحسر الاسلام مرة أخرى عن تونس وما جاورها من بلاد الأطلس .

وبينما كان حسان مقيما في برقة وطرابلس يقضي وقته في بناء المنازل لجنده وهي المنازل التي سميت بعد ذلك بقصور حسان كان الروم قد احتلوا مدينة قرطاجنة . والكاهنة من جانبها تقوم بهدم الحصون والمدن ليقينها بأنها السبب الذى يدفع العرب لغزو المغرب . وقالت في تبرير ذلك : « يريد العرب البلاد والذهب والفضة . ونحن انما نريد المزارع والمراعي . ولا ارى الا ان أخرب افريقية حتى ييئسوا منها » وقد كان هذا سببا جعل السكان ينفضون من حولها . وتمنوا حكم العرب الذى يتميز بالعدل وسيادة القانون والنظام ولايبلغ بقادته المسلمين من العسف مايبلغ بهذه الحاكمة الطاغية .

ومضى على تلك الاحداث نحو أربع سنوات . كان حسان خلالها يلح على الخليفة في ارسال مدد اليه ويستحثه بقوله : « ان أمم المغرب ليس لها غاية ولايقف أحد منها على نهاية . كلما بادت أمة خلفتها أمم . »

واستجاب الخليفة لتوسلات حسان فبعث له المدد والاموال فاكتمل لحسان جيش كبير . فقرر في الحال الزحف لمقاتلة هذه المرأة ثانيا فاما نصر نهائي واما استشهاد في سبيل الله .

وانطلق حسان بالمسلمين من برقة في خلال عام ٨١ من الهجرة (٧٠١ م) واجتاح المناطق في سهولة ويسر وقابله أهل البلاد بالترحيب وقدموا له الطاعة لأنهم كانوا راغبين عن حكم الكاهنة التى انزلت بمدنهم الخراب والدمار .

وفى اثناء عبور حسان لمنطقة جبل أوراس وجد نفسه فجأة امام

جيوش عدوته فالتحم معها فى صراع مرير وصمدت له وجـرت الدماء انهارا . وخيل للناس أن القيـامة قد قامت ، ولما أدركت الكاهنـة ان هزيمتها محتومة « بعثت بولديها ليستأمنا حسانا ، فأمنهما » وقيل : انه ولى كلا منهما على ستة آلاف ممن استأمن من البربر والأفارقة على حين أنها ظلت تواصل القتال لحماية مؤخرتها لتتمكن من الهروب الى الجبل ، ولكن حسانا أفسد عليها خطتها حين التقى بها عند «بئر الكاهنة» وشاء الله الا يخذل حسانا وجنوده فى هذه المرة فانتصروا عليها وقتلوها وبقتلها انتهت كل مقاومة للبربر ، وكانت هـذه آخـر ثورة لهم ضـد المسلمين ، بعـدها أخذوا يدخلون فى دين الاسـلام أفواجا وجماعات وينتظمون فى صفوف اخوانهم العرب المسلمين .

كان الروم خلال هذا الصراع قد استطاعوا بقيادة البطريق يوحنا احتلال قرطاجنة كما اسلفنا ، فلما فرغ حسان من أمر الكاهنة اتجـه اليهم يؤازره اسطول بحرى قدم من الشام ومصر لمساعدته ، وحمـل عليهم فى البر والبحر حتى طردهم من قرطاجنة ، وكانت هذه آخر مرة يرون فيها المدينة ، وبذلك قضى حسان على أكبر القوى الضاربةللرومان فما عادوا بعدها فى المغـرب يشكلون خطرا داهما ولا أصبح لهم قوة عسكرية مدمرة .

ثم اتجه حسان بعد ذلك الى تنظيم البلاد على نحو ماهو قائم فى مصر والشام وفى ذلك يقول المؤرخ ابن عذارى :

« وفى هذه السنة (٨٢ هـ) استقامت بـلاد افريقية لحسان بن النعمان ، فدون الدواوين وصالح على الخراج وكتبه على عجم افريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية » .

ثم قام ببناء مدينة تونس ومسجدها وكانت لاتعدو بلدا أو قرية صغيرة وقام بتحصينها حتى لايفاجئه الروم من البحر وهى فى الوقت نفسه تشرف على قرطاجنة ، وأخذ يوجه جهوده نحـو القيروان ، فوسع فيها وجدد بناء المسجد الجامع وانتهى من انشاءاته فى سنة ٨٤ هجرية الموافقة لسنة ٧٠٣ ميلادية ، وكان أهم عمل له فى افريقية بعد ذلك هو سعيه المتواصل لنشر الاسلام وتأليف القلوب . كما أشرك معه البربر فى حروبه التى وصل فيها الى طنجة ، وجعل لهم نصيبا من الغنائم ، ورتب لهم العطايا مثلهم مثل اخوانهم العرب وبذلك حبب البربر فى الاسلام ، وخطا الألوف منهم نحو خير الوحدانية فعزتهم بعد ذلة ، وجمعتهم بعد فرقة ، وهدتهم بعد ضلالة ، وأصبحوا بعد أن حاربوا الاسلام ، جنوداله

مؤمنين بعدله مطبقين تعاليمه مستضيئين بنوره « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » .

وهكذا استطاع حسان أن يحول بلاد المغرب كلها الى ولاية اسلامية قلبا وقالبا وأصبحت كلمة المغرب الاسلامى تدوى فى أسماع العالمين .

تم ذلك كله فى عهد هذا القائد العربى العظيم الذى لم يقدر لسياسته هذه أن تطول ، اذ أن عبد العزيز بن مروان (صاحب مصر) قام بعزله ، وقيل : ان نزاعا حدث بينهما ، فأخذ عبد العزيز يضيق عليه الخناق ويحد من سلطته ونشاطه فى المغرب ، فلم يجد حسان بدا من اعتزال منصبه والرحيل الى دمشق تاركا أمر المغرب لموسى بن نصير .

الفصل التاسع

غزوات موسى بن نصير

غادر موسى بن نصير مصر على رأس قوة ضاربة متجها الى المغرب ليتولى أمره ، ويثبت دعائم الاسلام فيه وينشره بين بقايا العناصر البربرية والرومانية المتمردة التى مافتئت تناوىء المسلمين وتشن عليهم حرب العصابات .

وما ان وصل مدينة القيروان بصحبة أولاده « عبد الله وعبدالعزيز ومروان » وأولاد الشهيد عقبة بن نافع « عياض وعثمان وأبى عبيدة حتى اتخذ لنفسه خطة يسير عليها فى غزواته تضمن له النصر فى زمن قليل ، وهى أن ينشر أجنحته فى جميع أنحاء المغرب وبخاصة فى أقاليمه الشمالية ، ليأخذ البيعة من جميع أهله فى وقت واحد .

وكانت أولى ضرباته متجهة الى المتمردين فى قلعة «زغوان» القريبة من القيروان ، فبعث اليهم بفرقة من خمسمائةفارس أمكنهم ان يضربوهم الضربة القاضية ويأخذوا البيعة ممن استسلم منهم .

ثم بدأ موسى بعد ذلك فى تنفيذ خطته فقسم الجيش الى عدة اقسام :

القسم الاول : قاده ابنه عبد الله بن موسى ، وانطلق به الى أماكن العصاة حول تونس فأخضعهم وسبى منهم سبيا عظيما .

القسم الثانى : بعث على رأسه ابنه مروان بن موسى وزحف به نحو الاماكن القريبة من الساحل ، فانتصر على فلول الروم وأنصارهم من البربر وغنم غنائم هائلة .

القسم الثالث : عين عليه موسى أولاد الشهيد عقبة ووجههم الى مدينة سجوما للانتقام من رجال القبائل الذين اشتركوا فى هزيمةوالدهم ومقتله ، وقد حالفهم التوفيق فأثخنوهم بالطعنات ولم يتركوهم الابعد ان افنوهم جميعا وعلى رأسهم « ستمائة » رجل هم قادة أمرهم .

القسم الرابع : توجه به موسى بصحبة كبار القواد عياش بن أخيل والمغيرة بن أبى بردة وزرعة بن أبى مدرك ، وظل يذرع به اماكن الثائرين شمالا وغربا وجنوبا حتى استطاع ان يقضى على بقايا الحاميات الرومية وأنصارها ، وكان قضاؤه شديدا مروعا ، فلاقى بعض العصاة من قبائل

هوادة وزنانة وكتامة وصنهاجة وغيرهم من ثوار البتر والبرانس على يديه أشد أنواع التنكيل مما جعل السكان يتسابقون فى الخضـــوع له ، ويهرعون اليه معلنين اسلامهم ليأخذوا مكانهم فى جيوش الغزو لينالوا الغنائم وثواب الله على اعلاء كلمته وتثبيت وحدانيته .

ولم يفت موسى فى أثنـاء ذلك أن يبعث ببعض الغنـــائم النفيسة والسبايا الجميلات الى مولاه عبد العزيز بمصر ، ثم للخليفة عبد الملك ويقول المؤرخ الدينورى فى ذلك : « واهديت لعبد الملك جارية افريقية أهداها اليه موسى بن نصير عامله على أرض المغرب وكانت من أجمـــل نساء دهرها ، وكانت أثيرة لدى عبد الملك » .

وهكذا نجح موسى بن نصير فى ارضاء الخليفة فزال بذلك ماكان يحمله له من أحقاد .

اجتمع لموسى بن نصير بعد تلك الانتصارات آلاف من فرسان البربر الشجعان انضموا اليه عن طواعيـــة ، وكان منهم فارس مؤمن صـــادق الايمان ذلك هو طارق بن زياد الليثى الذى اظهر من الاخـلاص لدعوة الاسلام مااسترعى انتباه موسى بن نصير فقربه اليه وقدمه على من عداه من كبار القواد ، وقد اختلف الرواة فى نسب طارق فالأكثرون يقولون . انه بربرى ، وانه مولى موسى بن نصـــير ، وقال آخـــرون : انه فارسى والواقع أن أمر طارق لايحتمل خلافا ، فهو بربرى انحدر من أصـــلاب قبيلة عربية اختلطت دماؤها بدماء الوندال الذين سكنوا المغرب فى عام ٤٢٩ بعد مولد المسيح .

وقد كان طارق أبيض الوجه أشقر الشعر ، أزرق العينين . حتى ان بعض المؤرخين المحدثين يعدونه جرمانى الاصل أكثر منه افريقيا .

كان لابد لموسى وقد اجتمع له هذا الجيش البربرى الجرار الذى بلغ عدده حوالى اثنى عشرألف فارس جمعتهم مع العرب صفات البداوة والفطرة وحب الغزو فى سبيل الله أن يفتح لهم مجالا للغزو والا أفلت منه زمامهم ، لذلك ماكاد ينتهى من تدبير شئون المدن التى طهرها من المتمردين حتى سرعان ماقادهم جميعا بصحبة جيشه العربى البـــالغ « سبعة عشر ألفا » الى ميادين المغرب الاقصى لاخضـــاع الثائرين واعادة الأمن الى نصابه فى تلك الجهات .

وظل ممعنا فى زحفه يضرب ذات اليمين وذات الشمال لاتصـــده حصون ولاتقف فى سبيله عقبة حتى اجتاز نهر درعة لاول مرة فى تاريخ

الفتح العربى لافريقية ، وبلغت جيوشه السوس الاقصى فى تلك البقعة التى لم يصل اليها اى فاتح أجنبى غيره .

وبعد أن أخذ موسى الطاعة من الاهالى استأنف زحفه الخاطف نحو المدن التى على شاطىء المحيط الاطلسى ، واتجه الى طنجة وهى فى ذلك الوقت أعظم بلاد المغرب حضارة ، فبلغها فى خلال عام ٨٩ للهجرة (٧٠٧ م) فوجدها حصينة قوية ففرض عليها الحصار ، وكان الحصار شديدا جعل حاكمها البيزنطى « أخيلا » يهرع الى موسى معلنا خضوعه وقيل : انه اعتنق الاسلام لينقذ أهله من السبى .

نصر مابعده نصر لم يقنع به الفاتح الكبير ، بل انطلق ثانيا كالريح نحو حصن (سبتة) الرومانى ليأخذ الطاعة من حماته فاستعصى عليه كما استعصى على عقبة بن نافع من قبل ، فحاصره وكان حاكمه يدعى الكونت جوليات اوبليان النصرانى كما سماه العرب ، وكان تابعا بالاسم لبيزنطة ، ولما بدأ العرب فى غزو المغرب وقضوا على قوة بيزنطة العسكرية فى مختلف الميادين اتجه يليان الى ملوك اسبانيا ليحموه من خطر الغزو الاسلامى ، فكانوا يمدونه بالعون عن طريق البحر ، وقيل : انه كان يمت بصلة النسب للملك غيطشة ملك اسبانيا فى ذلك الوقت .

ولما طال الحصار حول الحصن وعجز موسى عن فتحه رأى أن يتركه ويرجع الى طنجة حتى يؤمن الطريق خلف المسلمين ومن هناك اخذ يشن عليه الحملات ، ولكنه لم يستطع أن ينال منه وطرا نظرا لما كان يأتى يليان من المدد الاسبانى .

واخيرا قرر موسى الرجوع الى القيروان التى طال غيابه عنها تاركا القائد الشجاع طارق بن زياد على طنجة ومعه « تسعة عشر الفا » من فرسان البربر والمسلمين وقلة من فقهاء العرب ليعلموهم فرائض الدين وأصوله ، وعهد اليه بالعمل على اخضاع قبائل غمارة وبراغوطة القاطنة حول طنجة . ثم كلفه مراقبة سبتة وانتهاز الفرص لغزوها وتحطيم شوكتها .

غادر موسى طنجة واتجه الى القيروان حاضرة المغرب الاسلامى لتدبير أمر المدن المفتوحة ونشر الدين بين القبائل والاجناس . ونجح فى ذلك نجاحا كبيرا ، واستطاع بما له من دراية واسعة فى قيادة الجماهير ونباهة فى ادارة السلطنة كما يذكر المقرى أن يمزج الأجناس بعضها ببعض وأحسن المعاملة ، وطبق حكم المساواة لا فضل لأحد على آخر الا بالتفانى

فى الجهاد فى سبيل الله واعلاء وحدانيته واقامة الحدود ، فرغب الناس فى الاسلام ، واستجابوا لندائه الذى يقرع الأسماع على اختلاف عقائدها، ويدعو الى الصلاة . فكأنما كان هذا النداء وهذا الأذان فيضا عجيبا من الله تفتحت به اسماع أهل المغرب وتطهرت أرواحهم ، واستجابت نفوسهم لدعوة الحق والايمان ، الدعوة التى تؤلف ولا تمزق ، وتوحد ولا تفرق ، وتصلح فى الارض ، لا لتفسد بين الناس . وقد صنعت هذه الدعوى فى القلوب فوق ما يصنع السحر ، فتدفق سيل الداخلين فى الاسلام من أهل المغرب منبهرين بتعاليمه السمحة وصفحه الجميل وعفوه السابغ . « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضرانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور .. »

وبهذا أخذت اللغة والثقافة العربية تنتشر بسرعة وأصبح الفتح الاسلامى للمغرب فتحا عسكريا ومعنويا فى آن واحد ، اذ ضمن انتقال شعب البربر من حكم الروم المستعمرين الى حكم اخوانهم العرب المسلمين . ومن ديانة الشرك والتثليث الى ديانة الاسلام والتوحيد حتى أصبح المغرب بمثابة الجناح الغربى للأمة العربية الاسلامية التى تمتد حدودها من الخليج الى المحيط .

القسم الرابع

موسى بن نصير يستأذن الخليفة فى فتح اسبانيا



الفصل الاول

مقدمات فتح الأندلس

بينما كان موسى بن نصير يبعث الكتائب بصحبة الفقهاء الى مختلف أماكن القبائل القاطنة فى جوف البلاد ليأخذوا البيعة منهم ويفقهوهم فى الدين الجديد ، كان طارق بن زياد قد حاول مرارا غزو سبتة ولكنه لم يستطع ، وقد رأى حاكمها يليان من محاولات طارق المتكررة على مهاجمته أنه واقع فى يده فى يوم ما نظرا لما يتجمع لطارق كل يوم من الرجال الذين يهرعون اليه للانضواء تحت لوائه ، فعزم على مصانعة (طارق) والدخول معه فى الصلح ليأمن شره ، وكان أن اتصلت بينهما الاسباب ، ونجحت مفاوضات الصلح بينهما .

ولسنا نعلم شيئا عن الاساس الذى قام السلام عليه بين الجانبين، وكل ما نعرفه أن طارقا حاول الاستيلاء على سبتة فلم يستطع فاكتفى بمودة صاحبها عسى ان يستعين به على اخضاع من هم تحت سلطانه من البربر وهم كثيرون .

وكان طارق سياسيا بارعا فبادل يليان ودابود ، وفى هذه الاثناء مات (غيطشة) ملك اسبانيا والعون الاكبر ليليان فى الدفاع عن مدينته واغتصب عرشه القائد القوطى (رودريجو) أولذريق كما سماه العرب وشتت شمل ورثته الشرعيين (اولاد غيطشة) وتنفيذا لما كان بين غيطشة ويليان من عهد أرادالاخير مساعدة أولاد حليفه ليجلسوا على عرش أبيهم، ولكنه عجز عن ذلك ، فوقف فى مدينته (سبتة) يرقب الاحداث ، وكان لا يفتأ يدبر المؤامرات لخلع لذريق ..

وفى أثناء ذلك جاءه الخبر بأن ابنته (فلوروندا) أو (كافا) كما عرفها العرب التى كانت تعيش فى قصر اسبانيا لتتأدب بآداب الملوك كما جرت بذلك العادة وقتئذ ، وهى قيام أمراء الاقاليم وخلفاء الملوك بارسال بناتهم وأولادهم الى بلاط الملك بطليطلة لهذا الفرض — قد اغتصبها الامبراطور (لذريق) وأهدر شرفها ، فعزم يليان على الانتقام منه بأى ثمن حتى لو كان فى ذلك تحريض المسلمين على غزو اسبانية النصرانية ومساعدتهم ، وقد آثر ان يكتم هذا فى نفسه حتى يسترد ابنته وقال فى ذلك لاهله فى رواية المؤرخ ابن عبد الحكم : « لا ارى له عقوبة الا أن أدخل عليه العرب » ، وبعث لطارق سرا بهذا الخصوص قائلا : انى مدخلك الأندلس .

وكان ان غادر مدينتهوعبر البوغاز الى اسبانيا وذهب لمقابلة لذريق .

وذكر أن لذريق استغرب حضوره في هذا الوقت (وقت الشتاء) ، فتعلل يليان بقصة ابتكرها من وحي خياله ، وهي أنه لم يحضر الا تحت الحاح زوجته المريضة التى أوشكت أن تموت وتتلهف على رؤية ابنتها قبل أن يدركها الموت ، ورجاه أن يأذن لابنته بالرحيل معه لزيارة أمها المريضة ، فتأثر لذريق ووافق على سفرها معه بعد ان منحها هداياه الملكية ، واخذ عليها العهد بكتمان امره معها كما أنعم على والدها بفيض من بره وعطاياه .

وانقلب يليان راجعا بصحبة ابنته وعندما ودع لذريق يليان قال له ما معناه .

« اذا قدمت علينا ثانيا فتخير لنا من الشذانقات (نوع من طيور الصيد) التى لم تزل تطرفنا بها فانها آثر جوارحنا لدنيا » فأجابه يليان :

« أيها الملك وحق المسيح لئن بقيت لأدخلن عليك شذانقات مادخل عليك مثلها قط » .

وكان يضمر بهذا ما استقر رأيه عليه من مساعدة المسلمين لغزو اسبانيا لخلعه انتقاما منه وتشفيا فيه .

وهنا يغلب علينا الظن أن السلام الذى قام بين يليان وطارق كان من ضمن دوافعه تلك الحادثة التى وقعت قبل اتصال الرجلين احدهما بالآخر ، تلك التى دفعت يليان عند وصوله الى (سبتة) مع ابنته بأن يبعث لطارق ويحضه على فتح الاندلس واعدا اياه بالمساعدة وتقديم السفن اللازمة لنقل جنوده الى الشاطىء الآخر على ألا يتعرض للاغارة على حصنه ويتركه لشأنه سيدا عليه ، وقبل طارق العرض وبدأ يعمل له كما هو موضح بعد . ووصل يليان الى حصنه (سبتة) وتقابل مع رسل أولاد (غيطشة) وعرض عليهم مانواه للامبراطور لذريق فوافقوا على ما أضمر ونوى وفوضوا له العمل آملين أن يكون فى ذلك فاتحة خير لاعادة العرش المغتصب الى ورثته الشرعيين (أولاد غيطشة) .

وذهب (اخيلا) حاكم طنجة السابق الذى دخل فى ذمة المسلمين يبلغ طارقا ما اتفق عليه المتآمرون من دعوته لغزو الاندلس وان أعوانهم بالشاطىء الآخر منتظرون عبوره لمعاونته وانهم اتفقوا على الغدر بلذريق يوم المعركة الفاصلة بينه وبين المسلمين .

ووافقهم طارق على ذلك وعاد أخيلا يبلغ يليان موافقته ، فعزم يليان على مقابلة طارق والاتفاق معه على خطة الغزو ، وأنطلق اليه وهو واثق من نجاح مؤامرته ضد لذريق خصوصا ان الاخبار قد وصلته قبل مغادرة سبتة بأن لذريق قد ذهب الى اقليم (بنبلونة) في أقصى الشمال لاخضاع أنصار أرلاد (غيطشة) الذين لم يغمد لهم سيف منذ أن اغتصب لذريق العرش من أصحابه ، وكان اللقاء بين الرجلين يبشر بالنجاح ، فسرعان ما اتفقا على العمل معا .

واستقر الرأى على أن يذهب يليان الى موسى بن نصير لعرض الامر عليه وأخذ موافقته .

ومضى يليان من فوره ووصل القيروان فى خلال عام ٩٠ للهجرة الموافق لعام ٧٠٨ الميلادى وأخذ يحبب موسى فى فتح الاندلس ويسهل له كل صعب ويصف له محاسنها وما تحويه من الخيرات والكنوز ويكشف له مواضع الضعف فى حصونها وقد عاهده على الانضمام بجانبه مع جميع ما يلزمه من العدد والعتاد حتى يعبر العرب الى الضفة الاخرى .

ورضى موسى ، ولكنه أراد أن يقف على مدى اخلاص يليان لهذا العرض فابتدره قائلا :

« ومن أين أن اتيقن صدق نياتك ؟ »

فقال يليان :

« كلفنى شيئا أثبت لكم فيه معشر العرب اننى صادق فيما عرضت » .

فطلب منه موسى أن يقوم بغارة على شواطىء الاندلس ليكون ذلك بمثابة اعلان الحرب على لذريق من ناحيته .

ونفذ يليان الامر وقام رجاله بغارة خاطفة على اسبانيا عادوا بعدها محملين بكثير من الغنائم ، الامر الذى طمأن موسى وشجعه على الاقدام على الفتح .

وكان لابد لموسى بن نصير أن يبعث للخليفة (الوليد بن عبد الملك) وقتئذ يعرض عليه الامر ويستأذنه فى الغزو ، فرد عليه الوليد بقوله :

« خضهـا — أولا — بالسرايا (يعنى بقلة من الجنود) حتى ترى وتختبر شأنها ولا تغرر بالمسلمين فى بحر شديد الاهوال »

ورد عليه موسى يقول :

« انه ليس يبحر زخار وانما هو زقاق يستبين للناظر ما وراءه »

فنصحه الخليفة ثانيا : بأن يكتشفها بنفر قليل من الفرسان قبل مغامرته بجيشه الكبير .

وأخذ موسى بن نصير يستعد لارسال فرقة صغيرة من الجنود كأمر الخليفة لاستطلاع أحوال الاندلس ، وبعث يخبر يليان بالامر فأظهر هذا فرحه ووضع سفنه الاربع على استعداد لنقل المسلمين ومساعدتهم فى العودة ثانيا .

الفصل الثانى

الغزوة الصغرى

واختار موسى بن نصير للقيام بهذه المغامرة واكتشاف الاندلس أحد قواد العرب المشـــهورين بالاقدام هو « أبوزرعة طريف بن ملوك المعافرى » وزوده بكتيبة من الفرسان عددها أربعمائة فارس سار بهم الى (سبتة) ، وهناك وجدوا فى انتظارهم يليان فأركبهم السفن مع نفر من رجاله ، واجتازت بهم مضيق جبل كالبى «جبل طارق بعد ذلك» ثم نزلوا فى جزيرة (بالوماس) على مقربة من الموضع الذى أنشئت فيه بعد ذلك بلدة طريف والتى تسمى اليوم « رأس طريف » وقد كان فى استقبالهم أعوان يليان وأولاد غيطشة لمعاونتهم وحراسة مؤخرتهم وكان ذلك فى شهر رمضان سنة ٩٣ هجرية (يوليو سنة ٧١٠م)

وانطلق الفرسان العرب يجوبون الشـــاطىء الجنوبى للاندلس ويستولون على كل ما صادفهم من كنوز الارض وفتياتها الحسان دون أن يجدوا أمامهم ما يصدهم أو يعرقل سير غزوتهم الصغرى ·

وعاد الجنود سالمين ، وبعث طريف الى موسى بنتائج مغامرته ونصيبه من الغنائم التى كانت فريدة فى نوعها جعلت موسى يصر على امتلاك الاندلس مهما كان الثمن ، واستقر رأيه على ارسال جيش كبير لغزوها بقيادة صفيه البطل المقدام طارق بن زياد ·

ونحب وقد أصبحنا قاب قوسين من أسبانيا أن نقول كلمة عنها حتى يستطيع القارىء الكريم أن يلم المامة سريعة بحالتها قبل الفتح العربى لها .

القسم الخامس

اسبانيا والشعوب التى حكمتها قبل الفتح العربى

الفصل الاول

أسبانيا واليهود

تطل اسبانيا من الجهة الشمالية الغربية على المحيط الاطلسى ، ومن الناحية الشرقية الجنوبية على البحر الابيض المتوسط ، وهى مثلثة الشكل تقريبا وتعتمد على ثلاثة أركان . الأول : فى الشمال عند خليج غفونيا على المحيط حتى (حصن لك) والثانى : عن الغرب عند (شلنت ياقب) بأقليم جليفية حتى (شلب) ، والثالث يبدأ من الجهة الشرقية الجنوبية عند (برشلونة) تقريبا الى بوغاز جبل طارق .

ويفصل شمالى اسبانيا عن فرنسا جبال البرنات واصل سكانها القدامى مزيج من (السلت) و (الايبريين) وقد نزح اليها فينيقيا فى خلال القرن العاشر قبل الميلاد واسسوا على شواطئها الجنوبية عدة مدن منها (قرطاية) أو (قرطاجنة) .

وفى القرن الخامس قبل الميلاد أيضا اســـتقر على ســـواحلها اليونانيون وشيدوا جملة مستعمرات واطلقوا عليها : اسم (ايبريا) ثم تداول هذا الاسم فعم شبه الجزيرة كلها (اسبانيا والبرتغال الآن) .

وفى خلال القرن الخامس المذكور استطاع الفينيقيون السيطرة على اسبانيا وازدهرت فى عهدهم مدينة قرطاجنة وأخيرا سقطت اسبانيا فى ايدى الرومان الغربيين حوالى ٢٠٦ قبل مولد المسيح عليه السلام .

ومكثت اسبانيا تئن تحت وطأة الامبراطورية الرومانية عدة قرون ولما سقطت روما تطلع بعـــض حكام الاقاليم الى الانفراد بحكم أقاليمهم وكان القائد (ألاريك) زعيم فرقة القوط الغربيين أشدهم نزعة للسيطرة فاستطاع أن ينشر نفوذه على مدينة روما ثم خلفه (أطاوولف) فسار على نهجه ، واستولى على بعض الاقاليم الجنوبية فى فرنسا ، ومن هناك تطلع الى امتلاك اسبانيا ، فزحف اليها بجيشه ودارت بينه وبين سكانها القدامى ومن معهم من قبائل الوندال معارك شديدة كان النصر دائما حليفه فيها .

وحاول الوندال بقيادة (جيسرك) الوقوف أمامه ، ولكنهم فشلوا وهربوا الى جنوبى اسبانيا واستقروا فيه واطلقوا على هذا الجزء اسم (فاندا لوسيا) كما سبق أن بيناه .

وظل القوط فى صراع طويل مع الاسبان الى أن استطاع يوريك القوطى فى اوائل النصف الاخير من القرن الخامس الميلادى ان يتغلب على جميع القوى ويخضع الاقاليم المهمة فى جنوب فرنسا وشمالى أسبانيا وجنوبيها وقبل وفاته « أخضع » لوزيتانيا « البرتغال حاليا » وبذلك أصبحت دولة القوط تمتد من أقصى الهضبة الفرنسية الى طرف اسبانيا الجنوبى : واخذت اسبانيا لاول مرة فى التاريخ تظهر كوحدة سياسية واتخذ ملوكها مدينة طليطلة مركزا للحكم والسلطان .

ومرت الأيام على اسبانيا وتقلب على عرشها كثير من ملوك القوط، ولما بدأ سرطان الحقد السياسي يدب فى قلوب الطامعين انتابتها موجة من الفتن والثورات ، وكان القرن السادس كله شعلة من الحروب الاهلية والمنازعات الطائفية ولقى بعض ملوكها حتفهم فى هذه الثورات الدموية وانتهز القوط الشرقيون وهم من سكان اسبانيا القدامى بزعامة « ثيودريك » الفرصة لتحريرها من قبضتهم وهم الذين كانوا يخالفونهم فى العقيدة فلقد كانوا يدينون بالعقيدة الآرية التى لا تؤمن بألوهية المسيح ولا تعترف للقساوسة بحق الوساطة بين الله والناس بعكس القوط الشرقيين (الكاثوليك) الذين كانوا يدينون بألوهية المسيح وتقديس السيدة مريم البتول .

وقد حالف الحظ (ثيودريك) بعض الزمن ولكن سرعان ما قام أحد قواد القوط الغربيين بثورة جريئة استرد بها عرش اسبانيا ثانيا بفضل معونة امبراطور (بيزنطة له فى عام ٥٥٤ الميلادى) .

وفى عام ٥٨٧م رأى الملك ريكاردو الذى تولى العرش فى سنة ٥٧٤م وانتهت أيامه فى عام ٦٠١م حسما للنزاع الدينى الذى طال مداه بين بنى قومه وبين أهالى البلاد الكاثوليك وأكثرهم من البشكنس (نافار) الذين يقطنون فى النواحى الشمالية رأى أن يعلن اعتناقه للمذهب الكاثوليكى لعل فى ذلك ما يهدىء الثائرين ويدعم سلطانه ، وفى مجمع طليطلة الدينى اعتنق المذهب وتبعه عظماء القوط الغربيون ومن يدين بعقيدتهم من حكام الاقاليم ، ولكن خاب فأل الرجل وبنى عشيرته فقد ظلوا جميعا برغم هذا فى نظر الشعب مغتصبين دخلاء .

وكان يزيد الجفوة بين أولئك وهؤلاء طبقة اليهود الذين عانوا أبلغ صنوف الاضطهاد نتيجة لخياناتهم ومؤامراتهم الدنيئة والذين قاموا بمحاولات متعددة يبغون التخلص من حكم القوط ، فأخفقوا ومزقت

جموعهم ونهبت ديارهم وقام (ريكاردو) بمصادرة شعائرهم الدينية ومنعهم من الشهادة ضد المسيحيين .

وسار التاريخ يتوكأ على عصاه يطوى فى سيره الاعوام الى أن اقبل شهر نوفمبر سنة ٧٠٠ ميلادية ــ فاعتلى العرش الملك غيطشة ، وهو الملك السادس والعشرون من ملوك اسبانيا القوطيين . فرأى البلاد مقسمة الى عدة طبقات كالآتى :

(أ) طبقة الامراء الحاكمين التى استولت على معظم الاراضى الزراعية ، وكان لها مناصب القيادة والزعامة .

(ب) طبقة الكهان وكان كل ما يملكونه معفى من الضرائب علاوة على اشتراكهم فى شئون الدولة وكان قضاؤهم لا مرد له ولم يكن القضاء عندهم وعند ملوكهم الا جباية الاموال وسلب الحقوق والاثراء الفاحش على حساب الشعب الجائع المسكين .

(جـ) طبقة الصناع والتجار وصغار الملاك ويقع على عاتقها دفع الضرائب والغرامات .

(د) طبقة رقيق الارض وكان افرادها الذين يكونون اغلبية الشعب . يفلحون ضياع السادة ويدخلون فى عداد ثرواتهم ، وكانوا محرومين من جميع حقوق الانسان كما كانوا ينتقلون من سيد الى سيد كالتركات يتوارثها الابناء عن الاباء .

كانت هذه هزيمة أسبانيا عندما تولى غيطشة العرش وكان فى الرجل نزعة من الخير ، فأراد أن يصلح ما أفسده أسلافه وأن يرد الحقوق ويمنح الشعب حقه فى الحياة ويحرره من ظلم الكنيسة والاقطاع فتآمر عليه الجميع فأعلنها عليهم حربا شعواء وظل يقاتلهم وحينما تبين له أن اليهود قد انضموا الى خصومه وكانوا حلفاءه بالأمس حمل عليهم وأصابهم من سيفه ما جعلهم يرجون الخلاص من حكم هذه الأسرة التى انزلت بهم اشد انواع التنكيل فى مدى قرنين من الزمان .

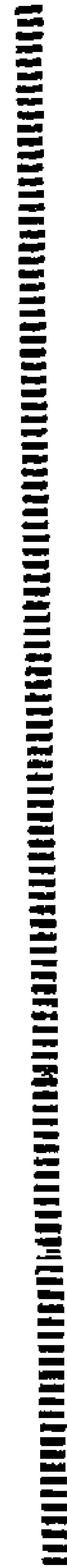
واليهود فى كل عصر اشتهروا بالخيانة والغدر ورثوهما كابرا عن كابر فى سبيل تحقيق أطماعهم ولو على حساب شرفهم ، وطالما اذوا الشعوب الحرة بالطعنات الخائنة ، تراهم فى فترات ضعفهم جبناء اخساء يظهرون الولاء والاستسلام . وفى فترات قوتهم جبابرة قساة

يشقون الأخدود ويحرقون النصـارى تحريقا كما فعلوا بنصارى اليمن في عام ٥٢٤ الميلادى في زمن مليكهم اليهودى (ذونواس) وقد ندد القرآن الكريم بفعلتهم هذه بقوله « قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود اذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد » .

هذا هم اليهود ، ارادوا التنكيل بالملك غيطشة فنكل هو بهم كما نكل بهم من سبقوه من الملوك والأباطرة ٠

القسم السادس

الفتح العربى لاسبانيا



الفصل الاول

تباشير النصر

وقف موسى بن نصير يودع طارقا وهو يتقدم موكب الغزو لفتح اسبانيا وتعريبها وحذره التهور فى الحرب محافظة على أرواح الجنود وأن يستشير أصحابه ويشركهم فى الأمر ولا يجتهد مسرعا بل بالتؤدة « فانها الحرب لا يصلحها الا الرجل الحازم الكيس الذى يعرف الفرصة » فيقتنصها ثم وصى قواد الفرق بألا يجبنوا عنـــد اللقاء ولا يمثلوا عند القدرة وأن ينزهوا جهادهم عن عرض الدنيا ففى ذلك النصر كل النصر

ثم وقف طارق في أواخر ربيع الآخر سنة ٩٢ هجرية الموافقة لسنة ٧١١ ميلادية يباشر عبور المسلمين الى شاطىء اسبانيا الجنوبى وهم على سفن يليان ويستمع اليهم وهم يرددون فى فرحة بالغة خلف شـــاعرهم شعره الحماسي الذى مطلعه :

ركبنا سفينا بالمجـاز مقيرا
عسى أن يكون الله منا قـد اشترى

نفوسا وأموالا وأهلا بجنة
اذا ما اشتهينا الشىء فيهـا تيسرا

ولسنا نبالى كيف سـالت نفوسنا
اذا نحن أدركنـا الذى كان أجدرا

ولم يأت اليوم الخامس من شهر رجب الا كانت آخر دفعة من الجنود بقيادة طارق بن زياد وصحبه الكونت يليان تهبط أرض اسبانيا وقد وجد الجميع فى انتظارهم أنصار الملك غيطشة ، فكانوا لهم خير العون والسند .

وبدأ طارق فى العمل بسرعة فأمكنه أن يسيطر على أكثر مدن الساحل الجنوبى (من قرطاجنة حتى الجزيرة الخضراء) وبذلك أصبحت تلك المدن التى على مضيق جبل كالبى (جبل طارق من ذلك الحين) الذى يبلغ حوالى خمسة كيلومترات ترفرف عليها الراية العربية الاسلامية .

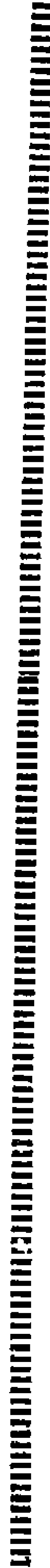
تم تركها طارق فى حراسة رجال يليان وانطلق هو شـــمالا بغرب فملك (طريف) وظل زاحفا دون أن يجد أمامه ما يصده حتى وصل نهير البرباط الذى يخترق بحيرة لاخندا ، وهنـــاك عسكر فى واديه الفسيح بجوار بلدة صغيرة أطلق عليها العرب اسم (بكة) وسموا الوادى باسمها .

وجاءت العيون تخبر طارقا بأن الامبراطور لذريق قد غادر مدينة قرطبة فى طريقه الى شذونة لملاقاته فى جيش بلغ عدده (مائة ألف جندى)

وأمام هذا الخبر أسرع طارق بارسال أحد قواده (طريف بن ملوك) الى موسى بن نصير يطلب منه مددا ويخبره بما أحرزه العرب من نصر وانهم ملكوا مداخل الاندلس وأن لذريق فى الطريق اليه بما لا قبل له به الا أن يشاء الله ٠

وكان موسى بن نصير منذ عبور المسلمين بقيادة طارق بن زياد على سفن يليان قد ساءه ألا يكون للعرب أسطول بحرى يغنيهم عن طلب المعونة من يليان وغيره ، لذلك جلب العمال والصناع وشرع فى انشاء عدة سفن حتى صار عنده منها عدة كبيرة ، فلما جاءه طريف برسالة طارق قام على الفور وبعث معه خمسة آلاف جندى أركبهم السفن العربية مرة واحدة ٠

ولم يمض طويل وقت حتى كان الجنود يأخذون مكانهم مع اخوانهم البسلاء فى سهل البرباط ، وهم جميعا أقوياء على المغانم حراص على اللقاء ومعهم يليـــان المســتأمن اليهم فى رجاله وأهل عمله يدلهم على الثغرات ويتحسس لهم الاخبار ، وقد قرروا أن ينطلقوا الى ماهاجروا اليه فى عزيمة وبأس : فاما نصر تثبت به دعوة التوحيد فى أرجاء اســـبانيا ، واما استشهاد فى سبيل مجد الله ووحدانيته ينالون به عند ربهم المقام الأسمى ومنزلة الصديقين الأبرار ٠



الفصل الثانى

المؤامرة

كان الامبراطور لذريق منذ أن علم بنزول العرب الى الأندلس قد أوقف جميع عملياته الحربية ضد الثوار فى اقليم بنبولنة ، وغادر الشمال مسرعا الى مدينة « قرطبة » لتكوين جيش كبير يواجه به طارقا وصحبه . وأرسل الرسل لأولاد غيطشة يعرض عليهم الصلح ويؤمنهم على أنفسهم ويستنفرهم للقتال معه وأن يكون الجميع يدا واحدة ضد المسلمين .

وقبل أولاد غيطشة العرض لتنفيذ مؤامرتهم ضده ، وساروا اليه فى رجالهم وأنصار أبيهم ، وبالقرب من قرية شقندة انضموا الى جيش لذريق وهم جميعا يضمرون كرهه وقال كبيرهم :

« ان هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننا وليس من أهله وانما كان من أتباعنا ، فلسنا نعدم من سيرته خبالا فى أمرنا ، وهؤلاء القوم (العرب) الطارقون (لبلادنا) لا حاجة لهم فى استيطان بلدنا وانما مرادهم أن يملئوا أيديهم من الغنائم ، ثم يخرجوا عنا فلهم فلنتهزم بابن الخبيثة اذا نحن لقينا القـــوم لعلهم يكفوننا أذاه فاذا انصرفوا عنـا أقعدنا فى ملكنا من يستحقه » .

وانطلق لذريق بجيشه وهو لا يدرى ما بيته له أولاد الملك غيطشة من غدر الى أن وصل سهل البرباط الفسيح فى الجهة التى بقرب مدينة شذونة ، فرأى على بعد حوالى فرسخين معسكر المسلمين ، فوقف فى مكانه ننظم صفوفه ويعد جنوده للقتال .

الفصل الثالث

معركة لكه وفرار لذريق

وقف الغريمان وجها لوجه كل منهما ينتظر أن يكون خصمه البادىء بالهجوم ولما ظهر لطارق أن الساعة الفاصلة قد أوشكت أن تحل اتفق مع قواد الفرق على حرق سفن الغزو لكى يفقد الجنود كل أمل فى العودة ثانيا الى المغرب ويقاتلوا قتال المستميت وفى ذلك ضمان للفوز (١) ·

وسرعان ما اندلعت النار فى السفن وملأ دخانها أجواز الفضاء الامر الذى حير لذريق وبعث فى التو من يأتيه بنبأ ذلك ، وقد هرعت اليه الرسل يملؤهم الفزع قائلين : « أيها الملك ، لقد جاءك منهم من لا يريد الا الموت أو اصابة ما تحت قدميك فقد أحرقوا سفنهم اياسا لأنفسهم من التعلق بها ، ووقفوا فى السهل موطنين أنفسهم على الثبات اذ ليس لهم فى أرضنا مكان مهرب » ، فخاف ثم تضاعف جزعه ·

وفى الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٩٢ هجرية الموافق ١٩ من يوليو سنة ٧١١ ميلادية وقف طارق يحث المسلمين على الصمود والثبات فى أثناء القتال وقال فيهم خطبته الخالدة التى بدأها بقوله :

أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم الا سيوفكم ولا أقوات لكم الا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم وان امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به اليكم مدينته الحصينة ، وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لانفسكم بالموت ، وانى لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعا فيها النفوس الا وأنا أبدأ بنفسى ، واعلموا أنكم ان صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفة الألذ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه بأوفى من حظى !

ثم ختمها بقوله :

---

(١) يشك البعض فى ذلك لان السفن لم تكن ملك المسلمين ولكن ليس من المستبعد أن تكون هذه السفن من التى بناها موسى بن نصير كما سبق القول ·

أيها الناس :

ما فعلت من شيء فافعلوا مثله ان حملت فاحملوا ، وان وقفت فقفوا، ثم كونوا كهيئة رجل واحد فى القتال الى أن قال :

وهأنذا حامل حتى أغشاه(١) فاحملوا بحملتى ، واكتفوا لهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم بعده يخذلون ٠

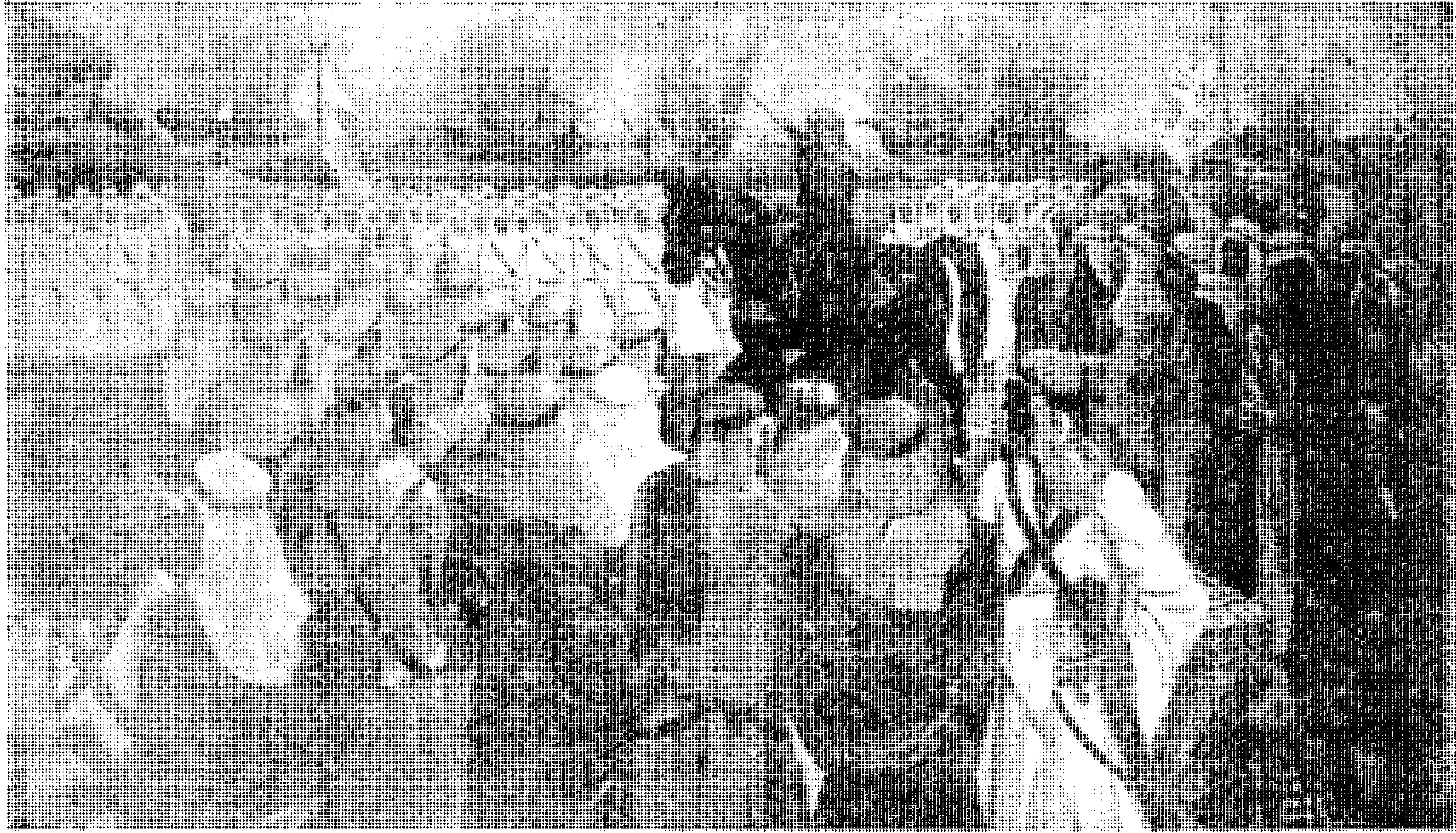
وبعد لحظة صمت رهيبة أصدر طارق للجنود اشـــارة الهجوم ، فانطلقوا الى صفوف أعدائهم كالريح العاصفة مكبرين مهللين ودوى صدى تكبيرهم فى أنحاء الوادى كرعد السماء فملأ الخوف قلوب القوط الذين لم يتعودوا من قبل سماع مثل هذا النداء ٠ وكان القتال بالقرب من بلدة شريش ، وظل ســـجالا بين الطرفين حوالى سبعة أيام وفجأة بدأ أولاد غيطشة عندما سنحت لهم الفرصة ينفذون ماعاهدوا أنفسهم عليه فانسحبوا من مواقعهم وانضـــموا الى صفوف المسلمين الامر الذى أوقع الفشل فى جيش القوط وجعل من نجا منهم يدير ظهره للمسلمين فرارا ورعبا تاركا خلفه ملء السهل والجبل آلافا من جثث اخوانه وعتادا لا يعد ولا يحصى ٠

أما لذريق فقد فر ناجيا بنفسه واتجه ناحية النهر ثم عبره سباحة الى الضفة الاخرى تاركا فرسه الأشهب المسرج بالذهب والياقوت وخفه المفضض على الشاطىء ، ليوهم المنتصرين بأنه غرق فيكفوا عن مطاردته ، ولكننا سنلتقى به بعد ذلك على رأس جيش كثيف عندما يقف وجها لوجه أمام بطلنا (موسى بن نصير) فى معركة السواقى وسنشاهد فيها نهايته المحتومة (٢) ٠

---

(١) أى لذريق .

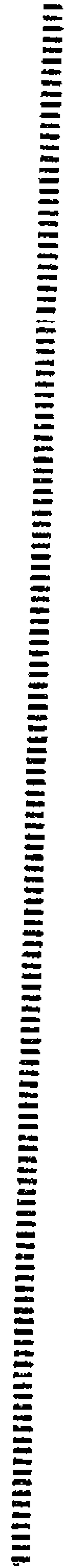
(٢) اقرأ تفاصيل جميع معارك فتح الاندلس في كتابنا (البطولة العربية في الاندلس وفرنسا) كتب قومية .



طارق بن زياد يخطب فى الجنود خطبته المشهورة قبل موقعة شريش (وادى بكة)



معركة شريش (وادى بكة) وفرار لذريق



الفصل الرابع

الى طالبيطله

ولما فرغ طارق من توزيع الغنائم على المحاربين عقب انتهاء المعركة انطلق نحو مدينة (استجه) فدخلها غازيا ، ثم أشار عليه الكونت يليان بأن يقسم جيشه أربعة أقسام • كل قسم يسير الى جهة لاخضاعها ، فقبل طارق مشورة الحليف ، وسار القسم الاول بقيادة مغيث الرومى لاحتلال مدينة قرطبة ، وزحف القسمان الثانى والثالث بقيادة زيد بن قاصد الى مدن الجنوب ، أما القسم الرابع فقد قاده طارق بنفسه واندفع به لغزو مدينتى طليطله (العاصمة) والمائدة (قلعة هنارس) •

ولما كلل الله جبين هذه الجيوش الاربعة بأكاليل الظفر ، واستطاع مغيث الرومى فتح مدينة قرطبة وأسر حاكمها القـوطى الذى احتفظ به لنفسه ليفتخر به عند الخليفة (الوليد بن عبد الملك) • واستطاع جيشا الجنوب الاستيلاء على مالقة وغرناطة وما حواليهما من قرى ، وغنم طارق أموال العاصمة وتيجان الأباطرة الذهبية المرصعة بالجواهر والمائدة الرائعة المصنوعة من الزبرجد الاخضر التى لها ثلاثماية وخمس وسبعون رجلا والتى كان القساوسة يحملون عليها الأناجيل فى وقت العبادة ويضعونها على المذابح فى أيام الاعياد مباهاة بعظمتها •

كان الشـتاء قد أقبل ففضل طارق بن زياد أن يقيم فى طليطلة ويوقف عمليات الغزو الى ما بعد انتهاء فصل الشتاء ، وقام فى خلال ذلك باعادة أملاك أولاد الملك غيطشة اليهم اعترافا لهم بما قدموه للمسلمين من مساعدة •

ولما عرف هؤلاء (أولاد غيطشة) أن العرب لم يأتوا أسبانيا وهم يقصدون اصابة الغنائم ثم يرحلون بعدها الى المغرب تمنوا من طارق ثم من موسى بن نصير المزيد من الضياع • ولكن البطلين رفضا واكتفيا باعادة «ثلاثة آلاف الضيعة» التى كان لذريق قد صادرها منهم من قبل • فامتثلوا للأمر وانزووا يندبون حلمهم الذى تبدد • وهو استرجاع عرش أبيهم المفقود •

الفصل الخامس

موسى بن نصير في الأندلس

هرعت الرسل الى موسى بن نصير بالقيروان تحمل له تفاصيل الموقف الحربى بالاندلس ومدى ما وصل اليه المسلمون من فتح لها ، فرأى أن طارقا قد اتجه في زحفه شمالا بشرق وترك أغلب مدن الغرب دون غزوها، وهى فى نظره أخطر الجهات على جيوش الفتح نظرا لكثرة ما تجمع فيها من القوط الهاربين ، فعزم فورا على العبور بجيشه لاخضاع هذه المدن خشية أن يقطع القوط خط الرجعة على المسلمين ٠

وبينما هو آخذ في الاستعداد لذلك اذ جاءته رسالة من طارق يحثه فيها على العبور اليه لنجدته قائلا له : « ان الامم قد تداعت علينا من كل ناحية ، فالغوث الغوث » ٠

وقد بعث طارق لموسى بهذه الاستغاثة بناء على الاخبار التى وصلت اليه من الكونت يليان من أن القوط بدءوا يكتلون أنفسهم للانقضاض عليه فى طليطلة ، لذلك ما ان وردت هذه الاستغاثة الى موسى بن نصير حتى أسرع بتجهيز الجنود للابحار بهم الى الاندلس ٠

وفي أوائل شهر رجب من عام ٩٣ للهجرة غادر موسى مدينة القيروان على رأس جيش بلغ عدده ثمانية عشر ألفا ونزل فى موضع بالاندلس سمى منذ ذلك الوقت بمرسى موسى ، وكان فى استقباله الكونت يليان الذى حثه على الزحف بسرعة نظرا لاشتداد المقاومة القوطية التى بدأت ترفع رأسها ، وتقض مضاجع الحاميات الاسلامية فى مختلف المدن التى فتحوها ٠

وما انتهى باقي الجنود من عبور البوغاز ووافوا زملاءهم فى مكانهم بالجزيرة الخضراء حتى انطلق موسى بن نصير بالجميع نحو مدن شذونة وقرمونة وراعوق فاستولى عليها دون جهد ٠

ثم تركها فى حراسة أنصار يليان وبعض الفرق العربية ونفر من اليهود الذين تطوعوا لخدمة المسلمين منذ ابتداء الفتح لحاجة فى نفس يعقوب ٠

وزحف مسرعا نحو مدينة اشبيلية وهى حصن القوط الحصين ومن أعظم مدن الاندلس وموقعها يساعد حماتها على الوقوف أمام هجمات الزاحفين ، اذ أن نهر الوادى الكبير وهى على ضفته اليمنى يساعد فى مناعتها وتحصينها ، فاستعصت على موسى عدة أشهر فحاصرها حصارا

محكما ، ولما أبر في سكانها الجوع من شدة الحصار قام هؤلاء السكان في الليل وغافلوا حراسها القوط وفتحوا الابواب للغزاة ، فدخلهـــا موسى دخول الظافرين وهرب القوط نحو مدينة باجة ؛ واعتصموا بداخلها ، ومنها راحوا يرقبون سير التيار .

ثم اتجه موسى بن نصير بعد ذلك الى مدينة ماردة وكانت هذه المدينة من أمتع مدن أسبانيا وبها من الآثار والقصور والكنائس ما يفوق الوصف وقد فتحها موسى صلحا بعد حصار طويل ، وما كاد ينتهي منها حتى بعث ابنه (عبد العزيز) الى اشبيلية لاخضاع الثائرين الذين انقضوا على الحامية الاسلامية واستولوا على المدينة . وقد نجح عبد العزيز في كسر شوكة المتمردين وأعاد النفوذ العربي الى المدينة « ثانيا » ، ثم مضى نحـــو المدن الغربية التي لم يتيسر للمسلمين فتحها مثل باجة وبابرة وشنترين فنجح في الاستيلاء عليها جميعا .



موسى بن نصير يهزم القوط على أبواب مدينة ماردة

الفصل السادس

موسى بن نصير ومقتل لذرق

بينما كان موسى بن نصير يحتفل بانتصارات ابنه (عبد العزيز) ويعد جنوده للجولة الثانية ، كان الامبراطور لذريق قد استطاع بعد هروبه عقب هزيمته فى معركةرلكة أن يجمع فلول جيشه المنهزم ويجند أنصاره مرة أخرى ثم وقف بهم فى المنطقة التى بين وادى نهرى (آنة ، والتاجة) لمعاودة الكرة ضد العرب ٠

ولما وصلت هذه الاخبار الى موسى بن نصير قرر فورا الزحف نحو بلدة (طليبرة) واستدعاء طارق بن زياد من مدينة طليطلة للزحف معا ومباغتة لذريق فى مكانه ٠

وترك موسى مدينة ماردة مسرعا مخترقا الطريق الرومانى القديم الذى يصل ماردة بمدينة سلمنقة بحذاء نهير صغير سمى من ذلك الحين (نهر موسى) ٠

والتقى موسى بطارق فى مكان يسمى (المعرض) بين نهرى التاجة والتيتار وترجل طارق عن فرسه احتراما لقائده الأعلى ، وتلقاه موسى بالترحاب ، ومدح شجاعته وحسن بلائه قائلا :

« يا طارق ، لن يجازيك الوليد بن عبد الملك (الخليفة) على بلائك بأكثر من أن يبيحك الاندلس ، فاستبحه هنيئا مريئا »

ورد عليه طارق بقوله :

« أيها الامير ، والله لا أرجع عن قصدى هذا ما لم أنته الى البحر المحيط » ٠

وبعد أن تفقد موسى صفوف المسلمين وشكرهم على جهادهم وأشاد بانتصاراتهم المظفرة عسكر بهم (فى ناحية السواقى) استعدادا للمعركة الفاصلة بينه وبين لذريق ٠

وفى هذه الأثناء كان لذريق يزحف برجاله نحو معسكر المسلمين ، وقد خيل اليه أنه بضربة خاطفة سيقضى عليهم نظرا لوقوفهم فى هذه المنطقة التى تبعد عشرات كيلومترات عن أى مركز لهم يستطيعون طلب النجدة منه ٠

والتحم الجيشان وظل القتال طيلة النهار وفجأة لمح «مروان بن موسى



موسى بن نصير يستقبل طارق بن زياد في مدينة طليطلة لتوحيد الجهود لقتال الامبراطور لذريق

بن نصير » الامبراطور لدريق وهو يقـــاتل كالشيطان على جواده فاندفع ناحيته مكبرا ، واقتحم الصفوف غير مبال بما يتعرض له حتى أصبح منه قاب قوسين أو أدنى وفى عزمة المؤمن الواثق بنفسه ونصره رفع سيفه وهوى به على عاتقه ثم كرر ضربته فسقط بعدها مجندلا تحت الاقدام ، والفارس الشجاع يكبر تكبيرة النصر ، فسمعه كل من فى الميدان ، فأجاب كل عربى (الله أكبر) عدونا قد مات ٠

وبموت لذريق اضطربت صفوفه ، وهرب من بقى من أنصاره ناجين بأنفسهم من سيف غالب خرج فى سبيل الله غازيا ولدين الوحدانية ناشرا فكان من المنتصرين ، ثم راح هؤلاء الهاربون فى مخابئهم يذرفون الدمع السخين على مليكهم المقتول ، وباتوا يرثونه بالملاحم الشعرية الحزينة وكان أروعها تلك الملحمة التى ظلوا ينشدونها على لسان مليكهم السنين الطوال ومطلعها :

كنت الليلة الماضية ملكا لاسبانيا وأمسيت الليلة ولا ملك لى !

كنت الليلة الماضية أملك القصور ، وانى الليلة مشرد لا أعرف أين اصطجع !

وكان يخدمنى ليلة أمس مائة من الولدان وهم ركع سجود ، وأما الآن فاننى أنادى فأسمع رجع الصدى وما من أحد يلبى النداء !

فيا لضيعة الأمل ويالسوئها من ساعة ! ويا لعنة هذا اليوم ! اليوم الذى ولدت فيه لأكون ملكا لهذا البلد العظيم !

يا لبؤسى وشقائى ! فعما قريب سأشهد الشمس تغرب ويهبط ليل ثقيل !

يأيها الموت من علمك التأنى والتمهل ؟ ما الذى تخشاه ؟ هيا اضرب ضربتك القاضية !

وحقا كانت الضربة قاضية فبمقتله دانت اسبانيا للعرب زهاء ثمانية قرون طوال ٠

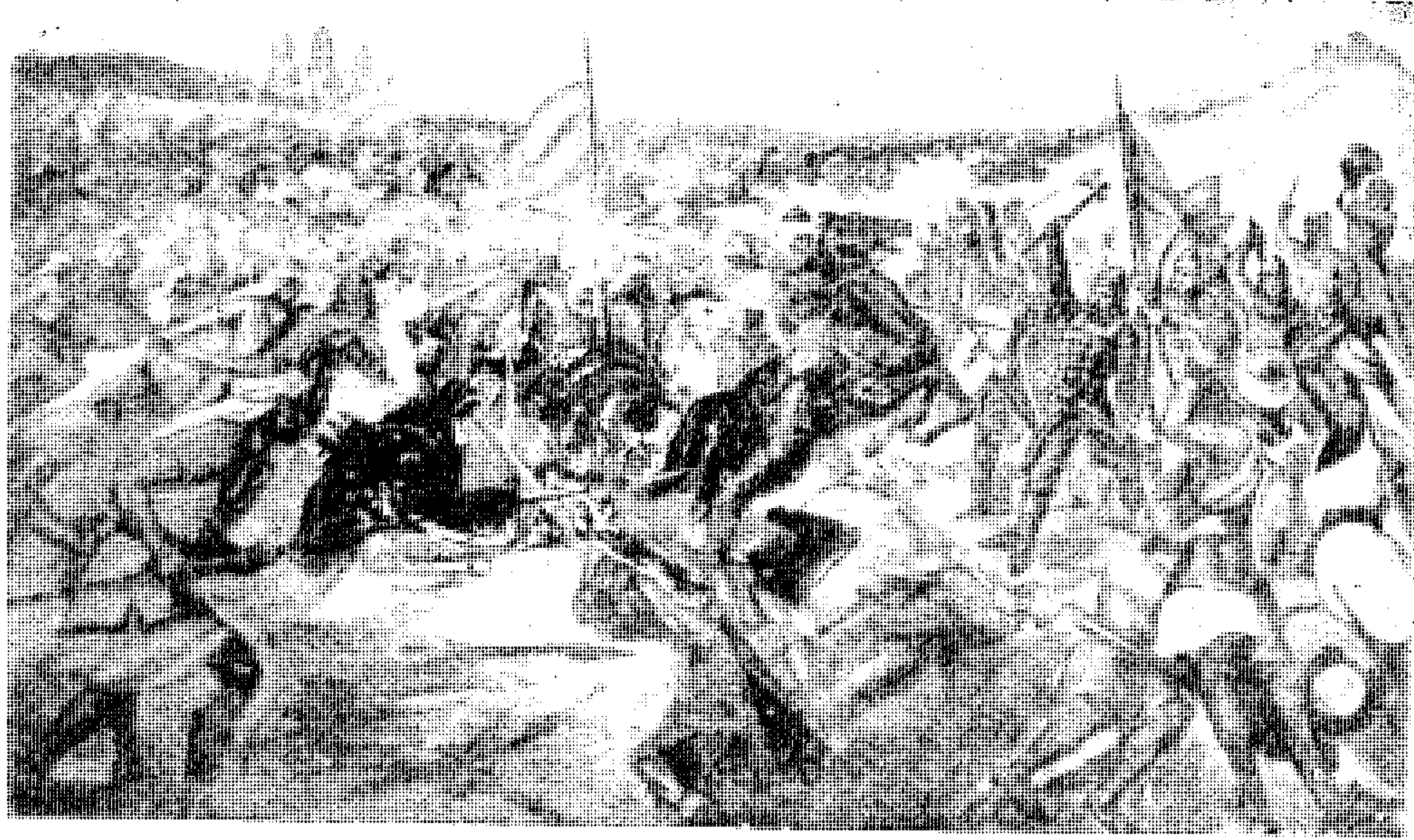
والعجيب أن القوم قد خلعوا على مليكهم بعد مصرعه أثواب البطولة وهم الذين كانوا يتمنون زوال ملكه ، وراحوا يتخـــذون منه المثل الاعلى لأمانيهم وآمالهم ، بل ذهبوا الى أبعد من ذلك ، فقد اعتقدوا أنه ذهب حيا الى مكان مجهـــول وانه يقضى أيامه فى ندم وحسرة على ما جنت يداه من الآثام فى حق شعبه. وقد أقبلت عليه الثعابين من جميع الأقطار ثم أخذت

نبتلعه دون أن يقاومها فلما غسل ذنوبه وكفر عن آثامه في جوفها خرج منها طاهرا مطهرا وانه اليوم يعيش في جزيرة السلام حتى يحين الوقت ويعود اليهم ثانيا ليقودهم الى النصر الذى فقده ، ولله فى خلقه شئون!

وجمع المسلمون أحمالهم وغنائمهم وغادروا أرض المعركة واتجه بهم موسى بن نصير نحو مدينة طليطلة حيث بلغه أن نفرا من القوط قد وثبوا عليها وانتزعوها من أيدى الحراس العرب اثر مغادرة طارق بن زياد لهـا لمقابلته ٠

واستطاع موسى أن يبطش بالقوط بطشة الجبـارين ودخل طليطلة بين التكبير والتهليل ، ثم بدأ يجمع الغنائم ويطالب القواد بأسلابهم وهى التى يعتبرونها حقا لهم الامر الذى كان له أسوأ الاثر في نفوسهم ولاسيما فى نفس مغيث الرومى وزميله طارق بن زياد وذلك لمطالبة موسى لمغيث بتسليمه حاكم قرطبة الذى يحتفظ به مغيث ليتباهى به عند الخليفة وأخذه من طارق مائدة طليطلة الرائعة التى سبق ذكرها ٠

ولما فرغ موسى من ذلك بعث (التابعى على بن رباح) و (مغيث الرومى) الى الشـام ليبلغا الخليفة (الوليد بن عبد الملك) ماأحرزه المسلمون من نصر ، وقد رأى مغيث فى هذه البعثة أعظم فرصة ليؤلب الخليفة على موسى ، ويدس له عنده نكاية فيه مما أثر على خاتمة موسى عند سفره الى دمشق امتثالا لأمر الخليفة كما سيراه القارىء مفصلا بعد ٠



موسى بن نصير في معركة السواقي ومقتل لذريق

الفصل السابع

غزو الشمال وسك النقود

٩٥ هجرية = ٧١٣ ميلادية

ظل موسى بن نصير بقية الشتاء مقيما فى طليطلة وفى أثناء اقامته قام بسك دنانير ذهبية وعملة برونزية ليدفع منها مرتبات الجنود ويتعامل بها المسلمون فى تلك البــلاد ، اذ أنهم كانوا فى ذلك الوقت يتعاملون بالعملة الافريقية التى سبق أن سكها موسى فى المغرب سنة ٩٠ هجرية ، وكان الدينار الذهبى الجديد مشابها للدينار الافريقى ، وقد كتب على أحد وجهيه (محمد رسول الله) يحيط بهــا نص باللاتينية على هيئة دائرة ، ونقش على الوجه الآخر نجمة ذات ثمانى أذرع حولها كتــابة باللاتينية ، ويلى ذلك تاريخ السك وهو سنة ٩٧ هجرية ٠

والعملة البرونزية كان تعريفها مكتوبا عليها باللغة اللاتينية أيضا ٠

ولما انقضى الشتاء ولاحت تباشير الصيف عزم موسى ، على الخروج للغزو ، واتفق مع طارق على الزحف معا ، وانطلقــا الى وادى الحجارة فاستوليا عليه ، ومنه انحدرا شرقا فأخضعا مدينة (سرقسطة) التى على الضفة اليمنى من نهر ابرة ٠ ثم غادراها الى مدينتى (الاردة ، وطركونة) وأخيرا دخلا مدينة (برشلونة) فاتحين وخطر لموسى بعد ذلك أن يعبر جبال البرنات وينطلق لغزو الارض الكبيرة (فرنسا أو الغال) ، كما كانت تعرف من قبل مستأنفا زحفه شرقا الى القسطنطينية ومنها ينطلق الى الشـــام ليلحق بدار الخلافة بدمشق ، ولكن قواد الجيش نصحوه بعدم المخاطرة فى تلك الارض المجهولة ، فأذعن لرأيهم، وعاد الى سرقسطة ليستعد للجولة الثانية ٠

وفى أثناء ذلك حضر مغيث الرومى قادما من دمشق يحمل معه أمرا من الخليفة لموسى بن نصير يأمره فيه بوقف جميع عمليـــات الغزو فورا ومغادرة الاندلس بصحبة طارق بن زياد وموافاته فى دمشق لمقابلته ٠ فأدرك موسى الذى كان له نظرة فى الرجال لا تخيب أن وراء هذه الدعوى ما وراءها نظرا لما بدر منه فى حق مغيث من قبل ، فطلب من مغيث أن يمهله بعض الوقت لغزو الشمال على أن يعطيه نصف ما يغنم من الاموال والسبايا وأن يملكه قصر حاكم قرطبة فقبل مغيث العرض وسار معه لغزو الشمال ٠

واتفق موسى مع طارق بأن يزحف كل منهما على حدة فزحف طارق

شمالا جهة شاطىء نهر ابرو فأخضع ولاية أرغون ، ثم استولى على بعض المدن ومنها مدينة ليون .

أما موسى بن نصير فقاد جيشه ومعه مغيث الرومى واندفع شمالا بغرب وسار متبعا نهير النالون حتى أدرك (كوفادونجا) ثم تركها الى (خيخون) على شاطىء المحيط الاطلسى فملكها ، وأخيرا بلغ (حصن لك) فدمره عن آخره وأراد أن يأسر حاكمـــه (بلايو) ولكنه أفلت من الاسر واعتصم بصخرة (بلاى) التى على المحيط ، فبعث موسى فى اثره فرقة من الفرسان للقبض عليه .

وبعد هذا النصر المؤزر ألح مغيث على موسى بالعودة الى دمشق تنفيذا لأمر الخليفة فاستجاب له موسى وبدأ يستعد للرحيل .



القسم السابع

خاتمة موسى بن نصير ووفاته



الفصـــل الأول

رحيل بلا عودة

غادر موسى بن نصير حصن لك وانطلق الى ليون لمقابلة طارق الذى قدم من اشتورقة، ومن هناك سارا معا ومعهما مغيث الرومى، وفى الطريق عرج موسى الى مدينة طليطلة لجمع الغنائم والاسرى من أمراء القوط وأشرافهم لاصطحابهم معه الى دمشق ٠

ولما انتهى من ذلك استأنف الرحيل الى أن وصـــل مدينة قرطبة فرأى (موسى) قصر حاكم المدينة الذى كان قد وهبه لمغيث فأخذ بما شاهده من فخامته وروعته حتى انه قرر أن ينقض قراره ويمنح مغيثا بديلا عنه قصرا آخر أقل روعة منه ، الامر الذى زاد كراهية مغيث له ٠

ومن قرطبة واصل موسى مسيره فوصل مدينة اشبيلية وقبيل ابحاره منها استخلف على الاندلس ابنه (عبدالعزيز بن موسى) ووصاه بمتابعة الفتح والغزو لما بقى من الاقاليم الاسبانية وخاصة التى فى الجنـــوب الشرقى ، ثم اختار له مدينة اشبيلية عاصمة للبلاد لاتصالها بالبحر وقربها من المجاز ٠

وعبر موسى الى المغرب فى شهر ذى القعدة سنة ٩٥ هجرية (سبتمبر سنة ٧١٤م) ولما وصل مدينة القيروان عين ابنه (مروان) حاكما عليها وعلى ما جاورها من الاقاليم ، ثم نصب ابنه (عبد الملك) على حكومة طنجة وما يليها من بلدان المغرب الاقصى ٠

وغادر موسى القيروان فى طريقه الى دمشـــق مصطحبا معه أسراه وغنائمه التى لم يغنم مثلها فاتح من قبله سوى سعد بن أبى وقاص عند فتح المدائن بالعراق ٠

وظل موسى يسرع فى سيره الى أن وصل مصر فى السابع من شهر ديسمبر من العام نفسه ، وفى أثنـــاء الطريق طلب موسى من مغيث أن يسلمه حاكم قرطبة الاسير الذى سبق ذكره فأبى مغيث أن يسلمه اياه وقال له « لا يؤديه للخليفة سواى »

فما كان من موسى الا أن هجم عليه وانتزع الاسير منه ، وهنا أشار على موسى بعض خاصته بأن يقتل الحـــاكم قائلين له : (ان سرت به حيا طالبك به مغيث عند الخليفة و (الحاكم) لا ينكر قوله ، ولكن اضرب عنقه) ٠

واستمع موسى للمشورة وقتل الحاكم ، الأمر الذى جعل الجفوة تزداد بين موسى ومغيث ودفعت الأخير بأن يضم الى صفه طارق بن زياد ، واتفقا عند وصولهما الى دمشق أن يسبقاه لمقابلة الخليفة ويشكواه عنده ويخبراه بما صنع بهما من خبر المائدة وقتله لحاكم قرطبة وما قد استولى عليه من أموال وجواهر (لم تصب الملوك مثلهما من بعد فتح فارس) .

وغادر موسى مصر منطلقا الى دمشق فلما وصل فلسطين قيل انه كان بها فى ذلك الوقت ولى عهد الخلافة (سليمان بن عبد الملك فلما رأى سليمان ما جمع موسى من غنائم ليس لها نظير طلب من موسى أن يتمهل فى سيره الى دمشق لأن الخليفة (الوليد) فى النزع الاخير . وكان سليمان يبغى من ذلك أن يصل موسى بغنائمه الى دمشق بعد موت الوليد فتئول الغنائم كلها اليه .

ولكن موسى بن نصير أدرك ما يهدف اليه سليمان فلم يستمع له ولم ينفذ رغبته مما أثار حفيظة سليمان ضده وعزم على الانتقام منه عندما يعتلى الخلافة بعد وفاة أخيه .

وحث موسى الركب حتى وصل دمشق وطلب مقابلة الخليفة لتسليمه الأخماس والغنائم ، وبالرغم مما سمعه الوليد من وشايات فى حق موسى فانه تحامل على نفسه وهو مريض وجلس على (منبر المسجد) لاستقباله فبهت مما رأى من عظم الغنائم والجواهر التى لم ير مثلها قط واستعرض الأسرى الذين ألبسهم موسى أفخر ثيابهم المطرزة بالذهب والفضة ، فلقد كان موسى بطبعه ميالا الى المباهاة بما يقع فى يده من الأسرى العظام والاعلان بكل الوسائل عن انتصاراته المظفرة .

ولما انتهت عمليات التسليم دعا (الوليد) الى اقامة صلاة شكر ثم أومأ الى موسى بالتقرب اليه ورفع يده باناء (العطور) فصب عليه ثلاث مرات وأجازه وفرض لولده ومواليه وأحسن جوائز القواد الذين اشتركوا مع موسى فى الفتح ، ولم يمض اربعون يوما على هذا حتى مات الوليد ابن عبد الملك وأعلن فى الناس عن تولية (سليمان بن عبد الملك) خليفة مكانه .

الفصل الثانى

جزاء سنمار(١)

(١) كان سنمار مهندسا فارسيا وقد أراد الامبراطور يزدجرد أن يبنى قصرابالحيرة بالعراق ليتخذه هو وولده (بهرام) كمصحة فبعث لعامله (النعمان) بأن يبنىالخورنق فكلف هذا (سنمار) بناءه . فلما فرغ منه واعجبوا به قال لهم : لو علمت أنكم توفوننى أجرى لبنيته بناء يدور مع الشمس . فقالوا : وانك لتبنى أفضل منه ولم تبنه ! ثم أمروا بالقائه من أعلى القصر .

كان أول ما أقدم عليه سليمان بن عبدالملك بعد تنصيبه خليفة أن استدعى اليه موسى بن نصير وبدأ يحاسبه والغل يملأ صدره من ناحيته واراد قبل أن ينفذ فيه قضاءه أن يستعلم منه عن بعض ما خفى عليه من أخلاقه وصفاته وأحوال البلاد التى غزاها ويسأله عما فعله مع طارق ومغيث واستيلائه على ما ليس له من الغنائم قائلا له :

سليمان : ما الذى كنت تفزع اليه عند حروبك ومباشرة عدوك ؟.

موسى : الدعاء والصبر عند اللقاء .

سليمان : فأى الخيل رأيتها فى تلك البلاد أسبق ؟

موسى : الشقر .

سليمان : أى الأمم كانت أشد قتالا ؟

موسى : هم أكثر من أن أصفهم .

سليمان : أخبرنى عن الروم .

موسى : آساد فى حصونهم عقبان على خيولهم ونساء فى مراكبهم ، ان رأوا فرصة انتهزوها ، وان رأوا غلبة فأوعال تذهب فى الجبال لا يرون الهزيمة عارا !

سليمان : فأخبرنى عن البربر .

موسى : هم أشبه العجم بالعرب تقاء ونجدة وصبرا وفروسية ...

سليمان : فأخبرنى عن الاندلس .

موسى : ملوك مترفون وفرسان لا يخيبون .

سليمان : فأخبرنى عن الافرنج .

موسى : هناك العدد والعدة والجلد والشدة والبأس والنجدة .

سليمان : فأخبرنى عن الحرب بينك وبينهم . ألك كانت أم عليك؟

موسى : أما هذا فوالله ما هزمت لى راية قط ولا بدد جمعى ولا نكب

المسلمون معى منذ اقتحمت الأربعين الى أن بلغت الثمانين .

ثم صرفه سليمان بعد هذا وأرسل فى طلب عمر بن عبد العزيز (ابن عم سليمان) وقال له :

(يابن العم ، انى صاحب موسى غدا) يعنى أنه سيحاكمه غدا ، فسكت عمر ولم يجب وخرج من عنده فبعث فى طلب موسى فلما وافاه قال له عمر :

(يابن نصير انى أحبك لأربع) :

الواحدة : بعد أثرك فى سبيل الله وجهادك لعدو الله .

والثانية : حبك لآل محمد صلى الله عليه وسلم .

والثالثة : حبك عياض بن عتبة لما تعلم من حسن رأيى فيه .

والرابعة : ان لأبى عندك (عبد العزيز بن مروان) يدا وصنيعة ، وأنا أحب أن تتم يده وصنيعته حيث كانتا .

وقبل أن يجيبه موسى استطرد عمر قائلا : وقد سمعت أمير المؤمنين يذكر أنه صاحبك غدا فأنظر فيما أنت فيه ناظر من أمرك !

فأجابه موسى : قد فعلت وأسندت ذلك اليك .

فقال عمر : لو قبلت ذلك من أحد .. قبلت منك ، ولكن أسند الى من احببت .

ثم قام عمر وودعه وانصرف .

وأصبح موسى بن نصير فاغتسل وذهب الى دار الخلافة ، وكان الوقت صيفا فأذن له سليمان بالمثول بين يديه وكان يجلس معه عمر بن عبد العزيز فسأله عن مائدة طليطلة ومن الذى اصابها واستولى عليها قائلا له .

(انى لأعلم أن طارقا هو الذى أصابها دونك) .

فرد عليه موسى بقوله : ان طارقا لم يرها قط الا عندى .

فالتفت طارق الى الخليفة وكان حاضرا وقال له :

(فليسأله أمير المؤمنين عن الرجل المفقودة منها) .

وكان طارق قبل أن يقدم المائدة الى موسى فى طليطلة قد نزع منها احدى أرجلها الذهبية وأخفاها عنه ، فلما سأله موسى عنها قال له طارق (انى أصبتها هكذا) ، فأمر موسى بصنع رجل أخرى غيرها فجاءت مختلفة عن باقى أرجلها ٠

فقال سليمان لموسى : وأين الرجل المفقودة ؟ ٠

فقال موسى : هكذا أصبتها وعوضتها بهذه الرجل ٠

وحينئذ مد طارق يده فى قبائه وأخرج الرجل الأصلية منه وقدمها الى الخليفة ، فظهر للمجتمعين بطلان ادعاء موسى فى ملكيتها مما جعل « سليمان » يأمر بعزله عن جميع أعماله ومصادرة ما أصابه من غنائم ثم التفت الى موسى وقال له :

(قاتلنى الله ان لم أقتلك) واستطرد قائلا : (والله لأفلن غربك ولأفرقن جمعك ولأصغرن من قدرك) ٠

فرد عليه موسى فى أنفة قائلا :

(أما قولك تفل من غربى وتخفض من قدرى فان ذلك بيد الله والى الله المرجع لا اليك وبه أستعين عليك !) .

وأمام هذا التحدى لم يكتف سليمان بمصـــادرة ما استحوذ عليه موسى من غنائم بل فرض عليه غرامة باهظة مقدارها (أربعون مليـــونا وثلاثون ألفا من الدنانير الذهبية) ٠

ولما رأى موسى أنه سيعجز عن تسديد هذه الغرامة الفادحة وجه كلامه للخليفة قائلا :

(أما والله يا أمير المؤمنين ما هذا بلائى ولاقدر جزائى انى البعيد الأثر فى سبيل الله العظيم ، أما والله لمن فى بطن الأرض أحب الى ممن على ظهرها مروان وعبد الملك والوليد أخوك وعبد العزيز عمك وما أنت بفاعل يا أمير المؤمنين ، انى لأرجو ألا يكرم موسى بهوان أمير المؤمنين) ٠

وبعد أن فرغ موسى من كلامه التفت سليمان الى ابن عمه (عمر بن عبد العزيز) وقال :

(ما أرى يمينى الا يدا برئت يا عمر) ٠

قال عمر فى روايته : فاغتنمتها منه ولم أبال أن يحنث باحياء رجل من المسلمين فأجبته :

(أجل يا أمير المؤمنين ، امرؤ كبرت سنه وكثر لحمه (كان موسى بدينا) وبه سقم فما أراه الاميتا) .

وبعد انتهاء عمر من كلامه التفت الخليفة الى الحاضرين وقال لهم

(من يأخذ هذا الشيخ فيستخرج منه هذه الأموال ؟)

وكان يزيد بن المهلب بن أبى صفرة حاضرا فى تلك الجلسة فأجاب قائلا :

« أنا يا أمير المؤمنين » .

فقال سليمان :

« فخذه ولا تمسه وضع العذاب على ابنيه . مروان وعبد الأعلى »(١)

وخرج به يزيد فحمله على دابة ابنه ، ثم اتجه به الى منزله فأكرمه وأحسن اليه فلما انفردا وحدهما قال يزيد لموسى :

« لم أزل أسمع عنك أنك من أعقل الناس وأعرفهم بمكايد الحروب ومدارة الدنيا ، فقل لى كيف حصلت (وقعت) فى يد هذا الرجل (سليمان) بعد ما ملكت الأندلس وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخار وتيقنت بعد المرام واستصعابه ، وحصل فى يدك من الذخائر والأموال والمعاقل والرجال ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عنقك فى يد من لا يرحمك ، ثم انك علمت أن « سليمان » ولى عهد وأنه الوالى بعد أخيه وقد أشرف على الهلاك لا محالة ، وبعد ذلك خالفته ، وألقيت بيدك الى التهلكة وأحقدت مالكك ومملوكك » .

وفى اليوم التالى ذهب ابن المهلب الى سليمان ليشفع لصديق أبيه فقال له سليمان :

---

(١) يرجع وقوف يزيد مع موسي في محنته الى صنيع فعله موسي بأبيه (المهلب) عندما عزله بشر بن مروان (حاكم العراق في ذلك الوقت) من قتال الازارقة (الخوارج) وأراد قتله فتصدى له موسي ونجاه . ولما استفحل أمر الازارقة نصح موسي (بشر) باعادة المهلب الى قتالهم فهو أدرى بمكايدهم وقال له : ليس مثل المهلب في فضله وشرفه وقدره في قومه ، وقد قبل بشر النصيحة واعاد المهلب ثانيا الى القيادة عزيزا مكرما .

(ان رأس موسى قد اشتمل على مايمكن له من الظهور وانقياد الجمهور والتحكم فى الأموال ، ولكنى قد وهبت لك دمه ، وأنا بعد ذلك غير رافع عنه العذاب حتى يرد ما غل من مال الله) .

فذهب يزيد الى موسى وأشار عليه باجابة أمير المؤمنين الى مقاضاته عن نفسه وأبنتيه ، فرد عليه موسى بقوله :

« أما اذا كنت أنت صاحب هذا الشأن فأنا غير مخبرك فيما صنعت لأمير المؤمنين وايم الله لو أمر سواك بى وكلفه البسط على لكان أحب الى أن ألقى الله عز وجل وأقرب الى من أن يأخذ منى دينارا واحدا، أديا يابنى عن نفسيكما وأبيكما » .

وذهب يزيد بن الملهب الى سليمان وأطلعه على ما تم الاتفاق عليه وكان يقضى بالآتى :

- قبول موسى بمقاضاته .
- عدم عزل ابنه (عبد الله) عن افريقية لمدة سنتين .
- كل ما جباه موسى وابنه عبد العزيز بالاندلس يبقى له (أى لموسى) .
- أن يسلمه مولاه طارق بن زياد .

وقد رضى سليمان بهذا الاتفاق ما عدا الشرط الأخير فلم يقبل أن يسلم « موسى » — طارقا (وأبقاه تحت العقوبة) وبذلك (تمت المقاضاة والتراضى) .

ومرت الأيام على موسى بن نصير وهو راض عما نزل به من قضاء الله الى أن أراد الله أن يرفع عنه نقمة سليمان بن عبد الملك فأدرك هذا ما أقدم عليه من اساءة لموسى ، فندم على ما فعل معه وجعل يقول لكل من يقابله أو يجالسه :

« ما ندمت على شىء ، ندامتى على ما فعلته بموسى » .

ومهما يكن نوع العقاب الذى لحق بموسى بن نصير فان الانسان لا يسعه الا أن يعترف بأن الخلافة قد غمطت وأنكرت فضله وتناست أعماله المجيدة ، تلك الاعمال التى حققت وحدة العرب وجمعت شملهم من الخليج الى المحيط لأول مرة فى التاريخ . وقد كان أكرم لسليمان بن عبد الملك أن يعمل على اكرام صاحبها والاشادة بفتوحه العسكرية التى

مكنت لآل مروان ومدت نفوذهم الى أقصى المغرب ونشرت رايتهم فى أعظم بقعة في أوروبا في ذلك الزمن ألا وهى (أسبانيا) التى عاش فيها الاسلام بفضله حوالى ثمانية قرون . ولم يكتف موسى بهذا بل انطلق فى عزيمة وقوة ينشر بأس المروانيين في بعض جزر البحر الأبيض : فلقد حدثنا عذارى : أن موسى بعث المسلمين بقيادة ابنه (عبد الله) ففزوا صقلية وسردينية وميورقة ومنورقة وعادوا محملين بنفيس الغنائم والأسرى .

لقد كان يجب علي سليمان بن عبد الملك أن يضع كل هذا أمام عينيه قبل أن يصدر حكمه على البطل وأن يدرك أنه حينما رفض موسى ابن نصير أن يجيبه الى طلبه وهو فى فلسطين ليتمهل فى السير حتى يموت الخليفة المريض لتئول غنائم الأندلس والمغرب له انما كان يؤدى واجب وظيفته على أحسن مايكون الأداء ، وان تمهله في السير وهو يعرف الدافع له انما كان يشركه فى الاثم وخيانة الأمانة التى أؤتمن عليها وهو فى الوقت نفسه يحنث بيمينه التي قطعها على نفسه عقب حادثة البصرة (ليهبن عمره فى خدمة كل خليفة مروانى بلا طمع وباخلاص لا تشوبه شائبة) .

كما كان يجب عليه أيضا ألا يستمع لوشاية مغيث الرومى ضد موسى وأن يعرف ان ما قام به موسى من المطالبة بحاكم قرطبة انما كان يطلب حقا من حقوقه بصفته القائد الاعلى للجيش ، لانه هو وحده الذى تئول اليه الغنائم ، وهو وحده الذى يقوم بتوزيعها على المحاربين كل على حسب درجته في الجهاد بعد حجز الخمس منها للخلافة كما هو متبع ، وهو وحده الذى يأمر فيطاع أمره حفظا للكلمة ، لا أن يوزع قواد الفرق الغنائم على أنفسهم دون موافقة القائد الأعلى ، والاذعان لأوامره ؛ فذلك مخالفة خطيرة فى أيام السلم فما بالك فى أيام الحرب اذ يؤدى فى النهاية الى تفرق الكلمة وانتشار الفوضى فى صفوف المقاتلين ، وحينئذ تكون الهزيمة المرة كما وقع في حملة (عبد الرحمن الغافقى) بعد ذلك بالقرب من باريس عندما رفض قواد البربر أمر عبد الرحمن بترك الغنائم وراءهم لينطلقوا خفافا لغزو بقية فرنسا ، ولكنهم أصروا على اصطحابها معهم فى أثناء الزحف فكانت سببا فى الهزيمة الساحقة فى معركة (بلاط الشهداء) واستشهاد البطل عبد الرحمن الغافقى وانحسار النفوذ العربى عن أرض فرنسا بعد احتلال عربى لها مدى أربعين عاما تقريبا (١) .

---

(١) اقرأ تفاصيل ذلك في كتابنا البطولة العربية في الاندلس وفرنسا (كتب قومية) .

نقول كان يجب على سليمان بن عبد الملك ان يدخل كل أعمال موسى العظيمة فى حسابه والا يحرمه التكريم والمكافاة التى كان يستحقها أمثاله من القواد العظام الذين وسعوا رقعة الاسـلام ونشروا رايته فى كثير من بقـاع الأرض المعمورة وقتئـذ لا أن يطوح به فى زوايا النسيان وجحور الاهمال ، ولكن هو دائما الطمع والحقد الشخصى اللذان طالما قوضـا الأمم الناهضة وساما الأبرياء سوء العذاب .

وقد أراد سليمان بن عبد الملك أن يكفر عن اساءته لموسى بن نصير فاستصحبه معـه لتأدية فريضـة الحج وزيارة قبر النبى عليـه الصلاة والسلام وذلك فى حوالى سنة سبع وتسعين للهجرة .

وفى أثناء الطريق والموكب يعبر وادى القرى باقليم الحجاز انتابت موسى اغماءة الموت ، فلم يفق منها وصـعدت روحه الطموح الى بارئها وهو فى الثمانين من عمره ، فدفن فى مكانه بين حزين ومشـدوه كأنهم يعلنون للناس عن دفنه وأن شخصه العظيم أصبح الآن حيـا فى الخواطر والأذهان ، طواه القبر ومضى جسما ليعيش اسما مع الاحقاب مسطورا على كل قلب وعلى كل لسان .

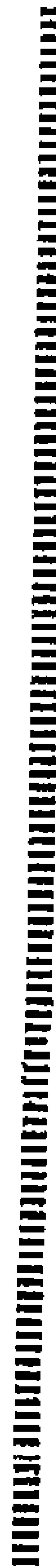
رحم الله موسى بن نصير لما قدم للإسلام والعروبة من جليل الخدمات وحسن الجهاد .



المؤلف يشرح لكبار زوار المتحف الحربي معروضات صالة فتوح موسى بن نصير للأندلس .

القسم الثامن

الجزاء من جنس العمل



الفصل الاول

خاتمة طاق بن زياد

تركنا طارق بن زياد في قصر الخلافة وقد ذهبنا بعد أن فرغنا من قصة قائده (موسى بن نصير) نقتفي أثره ونكشف عن مكانه فلم نهتد اليه اذ ضن علينا التاريخ بذلك وأغلب الظن أن الخليفة قد حجزه عنده ليعيش في كنفه كأحد مواليه اذ أنه لم يقبل أن يسلمه لموسى كما مر بنا لكي يكون تحت رقابته فلقد أوجس منه خيفة ان صرفه ثانيا يسافر الى الأندلس أن يستأثر بحكمها ويستقل بها لما له من كثرة الجنود والأنصـــار كما أخبره بذلك مغيث الرومي ٠

وهكذا انتهى بطارق بن زياد المطاف الى أسوأ ما انتهى اليه موسى بن نصير ، فلقد عرفنا لهذا خبر موته والارض التي وارته ، أما طارق فقد عجزت الأسفار عن الاهتـداء الى مكانه وعما وصل اليه من خاتمـة سواء كانت خاتمة حسنة أو سيئة ٠

ونحن ـ وان كان من أعز أمانينا وأماني طلاب البحث والاطلاع أن يقفوا على معرفة خاتمة حياة طارق السياسية التي بدأت بهذا الفتح المبين في سبيل اعلاء شأن العروبة ونشر وحدانية الله في أرجاء الامبراطورية الاسبانية ـ يكفي الجميع عزاء أن اسم طارق ما زالت الشعوب من مختلف الاقطار والامصار مع اختلاف ألسنتهم وألوانهم تردده صباحاً ومساء حتى يومنا هذا سواء كانت الشعوب العابرة من البوغاز الذي يحمل اسمه أو من ســاكني مدينته التي أنشئت على سفح جبل الفتح وتعرف اليوم باسم « جبل طارق » ٠

الفصل الثاني

خاتمة مغيث الرومي

أما ثالث الثلاثة (مغيث الرومى) فقد تركناه كذلك فى دمشق يعيش فى حمى الخليفة (سليمان بن عبد الملك) يسامره ويقص عليه من أنباء الأندلس ما يأخذ بألبابه ويثير حواسه وهو يبغى بذلك أن يجزل له العطاء ويمنحه المكافأة التى يحلم بها ويعمل جاهدا من أجلها وهى حكم الأندلس وليس أحسن منها مكافأة عنده ولكى يحقق هدفه بالسرعة التى يبتغيها بدأ يسلك مع صديقه طارق بن زياد الطريقة التى اتبعها مع موسى عند الخليفة ، فأخذ يخوفه اياه وطمعه فى الانفراد بحكم الأندلس اذا صرح له بالعودة ثانيا اليها ، وقد نجحت مساعيه فلم يبرح طارق ابن زياد دمشق ، بل اختفى اختفاء تاما عن مسرح الاحداث منذ ذلك الوقت كما أسلفنا .

واذا كان مغيث الرومى بدهائه الكبير الذى أزاح من طريقه بطلين من أعظم قواد الاسلام (موسى بن نصير وطارق بن زياد) فانه عجز عن أن يحقق أهدافه فلقد خيب سليمان بن عبد الملك ظنه وأحبط مسعاه فلم ينفذ له غرضه ولم يبلغه أمانيه ، بل أذن له فقط بالذهاب الى الاندلس ، فذهب وحيدا وعاش فى قصره بقرطبة دون أن يمارس عملا كأمر الخليفة، وظل طيلة حياته يندب حظه ، ولا غرو فالجزاء من جنس العمل الى أن مات تاركا ذرية كثيرة كان لها شأن كبير فى سياسة الاندلس بعد ذلك كما يقول التاريخ .

كلمة ختام

وبعـد فهذه سـيرة موسى بن نصـيرأحد أعلام القواد العرب المبرزين فى دولة آل مروان ، والذى ينتسب الى قبيلة ربيعة العدنانية وهى تعد من أشرف القبائل العربية وقد تقلد معظم أبنائها مناصب الصدارة فى الجاهلية والاسلام ومؤسسها ربيعة بن نصير اللخمى أحد ملوك اليمن والجد الأكبر للنعمان بن المنذر (ملك الحيرة) بالعراق ·

أما كيف انتسب النعمان العـراقى الى ربيعـة ؟ فإن لذلك قصة تروى عن ربيعة بأنه رأى فى منامه رؤيا تطير منها . فسرها الكهان :

بأن الاحباش سيرثون عرشه (وقد وقع هذا فعلا فى عهد أبرهة صاحب الفيل ومن بعدهم الفرس . ثم الاسلام). فأوجس خيفة وبعث على الفـور بأولاده الى الحيرة حتى يخلو له الأمر .

وفى الحيرة تزوج ابنه (عدى) فأنجب (عمرو) وهذا أعقب المنذر ابن ماء السماء (اسم أمه) ومنه كان المناذرة جميعا .

ومن ربيعة أيضا انحدرت قبائل بكر بن وائل وعبد قيس وتغلب و « بنو حنيفة » وهى قبائل خرج من إصلابها رجال

أفذاذ ذاع صيتهم . منهم المثنى بن حارثة الشيباني الذي سأل عنه الخليفة أبو بكر فقالوا له : (هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد ، هذا المثنى بن حارثة الشيباني) .

وقد خاض المثنى معركة (بجوار الكوفة) ضد الاكاسرة فقضى على قوتهم وأزال بذلك عن العرب عار الهزيمة يوم (الجسر) وأعاد العراق ثانية عربيا مسلما ، وقال كلمته المشهورة (والله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشد على من ألف من العرب ، ولمائة من العرب اليوم أشد على من الف من العجم) .

ومنهم البطل الشهيد عبد الرحمن الغافقي العابر لجبال البرت والفاتح لفرنسا . وغيرهما كثير عربوا البلدان وهزموا الامبراطوريات ، وقد اشتهروا بالدهاء وعلو الهمة والمخاطرة بأرواحهم في سبيل الله وتحقيق آمالهم .

فلا غرو أن أجتمع لموسى بن نصير الى جانب الاصل العريق والمنبت الكريم العقل الراجح الطموح والشجاعة والدهاء .

فقد رأينا كيف ألقى بنفسه في أتون الفتن ليتبوأ المكان اللائق بطموحه ، فلما فشل في (مرج راهط) لم يفر الى ابن الزبير في مكة ، بل ركن الى مخبئه يدبر الامر ويرقب سير الأحداث حتى دفعته نفسه الطموح الى الانضمام الى صفوف المروانيين لكي يعود ثانيا الى مسرح الحياة ليسعى الى تحقيق أهدافه وآماله العريضة .

فبعث الى صديقه (عبد العزيز بن مروان) يستجير به . ولم ير في ذلك ما ينقص من قدره ما دام فيه تحقيق أهدافه والوصول الى أغراضه .

ولما نال ما تمنى استعمل دهاءه الموروث في السيطرة على صديقه فاستطاع في وقت وجيز أن يصبح المستشار الاول للاقليم المصري من الامبراطورية العربية ، ثم وزيرا للخراج بالبصرة ، ثم حاكما للمغرب ، ثم فاتحا وقائدا عظيما من قواد الدولة العظام .

لقد كان موسى طموحا شجاعا لا يريد الا أن تكون انتصاراته من صنع يديه فقد عبر البحر ووطىء بقدميه أرض أسبانيا وقال لأدلائه : دلونى على طريق غير الطريق الذى سلكه طارق ، اذ لم يقبل أن يشترك معه فى غزواته بل انطلق يدمر الحصون ، ويفتح البلدان ويدك معاقل الشرك .

ولما رأى القوم (القوط) قد جمعوا من الخيل آلافا مؤلفة وهو مالا طاقة للمسلمين به بعث فى التو الى طارق لموافاته بجنوده لتوحيد الصفوف حتى يحارب العرب أعداءهم جبهة متحدة وصفا واحدا فتم له النصر ودانت اسبانيا بعد ذلك للعرب مئات السنين .

وقد تجلت من قبل ذلك عبقريته كقائد محنك عندما زحف لغزو مدينة ماردة ، فرأى قوة القوط الحربية كلها وقد تجمعت فيها ، ولما لم يفت الحصار فى عضدهم أقدم على تنفيذ خطة حربية أخذتها عنه الجيوش الالمانية الحديثة ضد الحلفاء فى معركة العلمين وهى التظاهر بالانسحاب ، فقد أمر موسى الجيش بالانسحاب ثم دار حول المدينة دورة سريعة فى الليل ، وتحت زاوية من سورها الضخم وقف بجنوده يصنع سترا خشبيا كبيرا ، فلما فرغ منه وضع تحته فرقة من الجنود وأمرهم بنقب فرجة فى السور لينطلقوا منها داخل المدينة ، وقد ظن الأعداء أن المسلمين صنعوا هذه الدبابة الخشبية ليتخذوا منها ستارا يقيهم ضربات السهام والنبال .

ونجحت خطة موسى واقتحم المسلمون المدينة وبعد صدام عنيف رفعت المدينة راية التسليم .

وقد تجلى دهاؤه عندما أرسل اليه الخليفة (الوليد بن عبد الملك) رسوله مغيثا الرومى يأمره بالسفر فورا الى دمشق ، فقد ساوم موسى مغيثا ووعده بمنحه نصف مايغنم على أن يؤخر رحيله الى ما بعد اخضاع اسبانيا كلها غير مهتم لما يبذل من مال فى سبيل تحقيق أهدافه فطالما ارتوى منه فى شبابه وانما كانت عقيدته نشر الوحدانية فى تلك الأرض وهدفه الصيت العريض والمجد الحربى الذى يتساوى مع مجد الاولين من المهاجرين والانصار وقد كان له ما أراد .

ولولا تصميم موسى بن نصـير على اخضـاع الاندلس وتدمير قوتها الحربية تدميرا شاملا ما استقر الأمر للمسلمين ولفقد أيضا المغرب عروبتـه التى جاهد فى سـبيل احيائها فرسان المسلمين مدة سبعين عاما . حتى أصـبح المغرب الآن بمثابة الجنـاح الغربى للأمة العربيـة تخفق معه قلوب العرب من الخليج الى المحيط .

والحمد لله أولا وآخرا ..

عبد العزيز حافظ دنيا

انتهى بحمد الله

المصادر

حسب ورودها فى المتن مع الشكر الجزيل لأصحابها

خالد بن الوليد	الفريق طه الهاشمى
عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
الفاروق عمر بن الخطاب	الدكتور محمد حسين هيكل
الأخبار الطوال	أبو حنيفة أحمد الدينورى
معاوية بن أبى سفيان	ابراهيم الابيارى
الخوارج فى الاسلام	عمر أبو النصر
عبد الملك بن مروان	الدكتور ضياء الدين الريس
أبو بكر والوحدة	محمد حلمى محمود
مصر فى العصور الوسطى	الدكتور على ابراهيم حسن
نظرات فى التاريخ الأموى	عبد السلام رستم
الشرق والغرب من الحروب الصليبية الى حرب السويس • جزء ٢	محمد على الغتيت
المختار الثقفى	الدكتور على حسن الخربوطلى
البيان المغرب فى أخبار ملوك الاندلس والمغرب	ابن عذارى المراكشى
المغرب الاسلامى جزء ١	الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم
تاريخ الرومان	مصطفى صبرى
السيرة النبوية •	ابن هشام (تحقيق مصطفى السقا وآخرين)
محمد ج ٣	محمد صبيح
فجر الأندلس	الدكتور حسين مؤنس
نفح الطيب	أحمد بن محمد المقرى
تاريخ العرب فى اسبانيا	محمد عبد الله عنان
دولة الاسلام فى الأندلس	« « «
البطولة العربية فى الاندلس وفرنسا	عبد العزيز حافظ دنيا
سير ملهمة	وليم دى بت •• بقلم اسماعيل مظهر (مؤسسة فرانكلين)

فهرس



الموضـــــوع	الصـفحة

الموضـــوع | الصـفحة

الدار القومية للطباعة والنشر

الدار القومية للطباعة والنشر

العدد ٨٦

الثمن ٤٠